دوائر الغبار

قصص

حسن نور



الهيئة المصرية العامة للكتاب
٢٠٠٧

سلسلة كتاب الاتحاد

رئيس مجلس إدارة اتحاد الكتاب :

محمد سلماوى

رئيس لجنـــــة النشـــــر :

المنجى سرحان

الغلاف والإشراف الفنى :

صبرى عبد الواحد

نور، حسن .
دوائر الغبار: قصص/ حسن نور. ــ القاهرة :
الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٧.
١٤٨ص ؛ ٢٠ سم .
تدمك ٠ ٦٤٣ ٤١٩ ٩٧٧
١ ـ القصص العربية القصيرة .
(أ) ـ العنوان .

رقم الإيداع بدار الكتب ٤٧٤٢/ ٢٠٠٧

I.S.B.N 977 - 419 - 643 - 0

ديوى ٨١٣,٠١

الإهـداء

إلى إخوتى أبناء مصر الأحرار

أمكم تغرق فخذوا بيدها

دوائر الغبار

دوائر الغبار

قالت وهى تتابعنى وأنا أخطو نحو الباب، وقد وجهت باطن كفيها نحو السماء: ربنا معاك، ويسدد خطاك ويوقف لك ولاد الحلال.. قادر يا كريم.

جريت إلى الدرج المتآكل الأطراف .. ضمتنى جدرانه الرطبة المتساقطة وظلمة بئره.. تسربت أشعة الشمس إلى الحوش من الباب إلى الحوش.. افترشت بلاطاته المربعة الكبيرة القديمة.

رنوت إليها فى فرح.. صدمنى تهرؤ النعلين، وأصابع قدمى المطلة من شقوقهما المقددة.. نحلتهما شوارع المدينة المتكسرة لما لفيتها من أقصاها لأقصاها جريًا وراء إعلانات الوظائف الخالية.

كل مرة كنت أجلس أمام ياقات مُنشاة وأعين زجاجية وشفاة مزمومة و .. سين وجيم ، سين .. جيم.

تجرى الإجابات سهلة على لسانى، فأكاد أطير فرحاً، وتمتلئ نفسى أملا بقرب الفرج.. دقائق معدودات وأسمع الكلمة التى

سأطير بها فرحًا إلى أمى وألقى إليها بشرى فوزى بالوظيفة الأمل، وقبل أن ينطلق لسانها مزغردًا تخرسها كلماتهم الباترة:

شكرًا .. سنرسل لك لواحتجناك.

أجرجر خطو الخيبة، عاقدا ذراعى وراء ظهرى، غارسًا عينى فى تراب الطريق، وأبيات من قصيدة تخاطب بائسًا تتقاطر فى رأسى:

إلى أين يا خاوى الجيب تمضى	وماذا سيلقاك غير الهموم
وغول البطالة يبغى الصراع	وما من معين وما من رحيم

إعلانات كاذبة ، مخادعة ، لبذر آمال هشة، تعصف بها الرياح فتزرها قاعًا صفصفًا، أقرر ألا أقرأها بعد اليوم حتى لا أجرى وراء آمال مراوغة، لكن يبدو أن قرارى هذا هو الوهم بعينه، فما أكاد أرى الصحف مكومة على «فرشة» البائع حتى ألتقط واحدة، وأقلب صفحاتها متوترا، وعيناى تتقافزان فوق السطور الدقيقة للإعلانات عن حاجة بعض المؤسسات لشغل بعض الوظائف الشاغرة لديها، لأخوض مرة أخرى غمار الوهم، ويدق قلبى وجلا وشفتاى تتمتم بالدعاء .. يارب.

سنوات طويلة ، ثقيلة، من السعى الدءوب، وبعد كل مقابلة، وسين وجيم انتظار للنطق بالحكم.. آمال معلقة على كلمة تنطقها الشفاه الحادة المطبقة.. تتقافز عيناى بينها قلقة، تتشبثان بواحدة تهم بالنطق.. ثم .. شكرًا .. سنرسل لك عند الـ...

تتساقط الآمال التى كانوا يمنوننا بها قبل التخرج.. خريج التجارة جوكر، يعمل فى كل المجالات، بنوك ، مصانع ، مصارف ، تسويق ، دعاية وإعلان .. فرص لا تتوافر لغيركم .. المؤسسات ستتخاطفكم و .. و.. هاها ه .. ااى.. ها هى السنوات تمر ومازلت. أجوب الشوارع أستجدى عملا، ويموت المعلم ولا يتعلم ، فما زلت أصدق كل ما أسمعه وأجرى وراء كل إعلان أقرؤه، على الرغم من نصائح الكثيرين .. ابحث لك عن واسطه، أمضى أسلحة هذا الزمن.. أفضل من بكالوريوسك الذى سهرت من أجله الليالى الطوال، والذى حمّلت أبويك من أجل الحصول عليه فوق طاقتهما.. حرما أنفسهما من ضروريات الحياة حتى يرياك متسلحاً بالعمل وتفوز فى النهاية بأحسن الأعمال ، وتظل ترقى فى عملك حتى تصل لأعلى المراتب.

هاها .. هاه .. أبحث لك عن واسطة ولا تضع عمرك هباء.. واسطة من واحد تقيل، توصلك للغاية التى ترنو إليها، وإن لم تجد فعليك بسلاح آخر.. الرشوة..

يا ساتر.

بلاش .. نسميها الهدايا.. هدية قيِّمة لأكبر رأس فى المؤسسة المعلنة عن الوظيفة، وتذكر الحكمة الخالده: إذا أردت أن تنجز فأبرز الونجز ، لتجد نفسك فى غمضة عين من العاملين بها..

- أعوذ بالله..

- أبرز الونجز والق بكل قيمك فى عرض البحر.

- ماذا ..؟!

- لقد أصبحت عملة بائرة.

- لا .. لا

- إذًا فلا تتعب نفسك ولا تبحث عن وظيفة .. انزل السوق واعمل به اعمل أى شىء.. اتفق مع عدة أشخاص واستقطب أحدًا من الكبار. وأعلنوا عن شركة مساهمة، وأغريه برئاستها، ثم العب لعبتك مع البنوك، اسحب قروض بضمان الأصول، واركب سيارة آخر موديل وتكلم فى الموبيل، وأعقد صفقات باسمك.. استورد لحومًا فاسدة أو لحوم طيور جارحة، أو أطعمة تقادم تاريخ صلاحيتها وأطمسها، سنتين ثلاثة وتصبح من أكبر رجال الأعمال، وقبل أن تقع الفأس فى الراس؛ وغالبا لا تقع لأنك ستكون صديقا للكبار، الذين ستوزع عليهم نصف أرباحك فى شكل هدايا.. شقق على النيل.. سيارة، قطعة أرض؛ وهُب تجد نفسك فى الخارج قبل أن يمسك مكروه.. هاه.. ما رأيك..؟ متردد ..؟ خائف..؟ ضميرك..؟ قيمك..؟ ، دعها تنفعك، أنا نصحتك و .. ولو سرقك الزمن وتكرمش جلد وجهك وضعف بصرك وأنت مازلت أنت .. واقف محلك، فلا تلومن إلا نفسك.. إنت حر يا صاحبى.

أغمض عينى فتطل علىَّ الأعين الزجاجية، والياقات المنشاة.. تنفلت الكلمات من بين الشفاه المطبقة .. دانات فتت كل الآمال المتبقية، أخرج.. يتلقفنى أسفلت الطريق.. أخطو فى ذهول وذراعاىّ معقودتان وراء ظهرى و ..

إلى أين ..؟

لا ملجأ إلا البيت .. آآه يا أمى، يبدو أن الطريق لا آخر له، وأن أحبال الصبر التى طالما تشبثتى بها أو شكت أن تتقطع، وأبى عرف ما ستصير إليه الأمور فآثر الانسحاب بهدوء.. انسحب قبل أن يتم بيع مقدراتنا الاقتصادية للمصريين وغير المصريين، فقط تساءل: لم البيع..؟ لماذا لا يكون حق انتفاع لعدد معين من السنين ثم تعود ملكيتها للدولة..؟ لم يقتنع بالإجابات الخائبة فانسحب، وأمى تجرعت مرارة الأيام القاسية بعد رحيله ، قلت لها : اشتغل وانتسب.

أقسمت بريها ورأس أبيها أن استمر فى دراستى منتظما ، وإلا لا أكون ولدها ولا أعرفها.

- يا أمى .

- الشهادة ستجعل منك شخصاً آخر فى نظر المجتمع ، وبها تفوز بالمناصب المرموقة .

هانذا يا أمى قد تخرجت، وحذائى بلى من الجرى وراء الوظائف المراوغة، وبدنى هدَّه التعب، وامتلأت نفسى بالحسرة.

- يا ولدى .. عليك أن تسعى واترك الباقى على الله.

أنت .. انت .. يا أخينا .. اووه.

من .. ؟ يا ااه.

واندفعت نحوه .. أخذته إلىّ .. أحتويته بين ذراعىّ .. ضممته إلى صدرى.. احتوانى بين ذراعيه .. ضمنى إلى صدره .. خبط ظهرى بباطن يمينه.. انغرس شعر ذقنه الإبرى فى وجهى..

ـ يا ااه .. أحمد البدرى .. معقول .. بعد كل هذه السنين..؟

ـ حبيبى حسن .. أين أنت ..؟

تحتويه عيناى .. ماهذا .. ماذا حدث..؟ ما هذه الملابس الرثه.. التى عليه..؟ لقد كان أكثرنا اهتمامًا بمظهره، وماهذا الشحوب الذى يعتريه، ولماذا غارت عيناه هكذا..؟ ولماذا كل هذا الحزن الراقد فى عينيه..؟ والآهه التى لم ينطقها.

ـ ماذا يا أحمد يا بدرى .. ماذا أصابك..؟

ـ هاه .. أبدًا .

انفلتت الكلمة من فيه مغموسة بكل آلام الدنيا، فأحسست بحاجتى للبكاء..

قلت له ونحن نخطو أولى خطواتنا فى درب الصداقة البريئة: سعيد بأن أرى الأمل يرتع فى عينيك.

كان أول الدفعة على مدى سنوات الدراسة، حتى أننا خلعنا عليه لقب شيخ المعيدين ونحن لم نزل فى السنة الثالثة ، والذى قرر قبل ظهور نتيجة أمتحاناتها الصعبة جدا عدم استكمال دراسته لو لم يحصل على تقدير جيد جدًا.

قلت مندهشا : أنت فى وعيك ..؟

قال : سأضطر للانقطاع عن الدراسة

قلت منفعلاً : ماذا تقول ..؟!!

قال : أنا وأمى نعيش على منحة التفوق .. فماذا يكون مصيرنا إن لم أحصل عليها.

ألجمتنى المفاجأة .. خرس لسانى للحظة، ثم وجدتنى أسأله:

ـ وأبوك ..؟

قال والدموع تملأ مآقيه: استشهد فى حرب ٧٣ ، وكوفئ بمبلغ ضاع مع الأيام.

ـ يا أحمد يا أخويا أنت شاب عظيم، ويمكنك أن تعمل وتواصل دراستك و.. قاطعنى قائلاً: التفوق وسيلة للعيش الآنى، وضمان للدخول إلى سلك التدريس ـ الذى هو أملى ـ مستقبلا.

ثم أردف بعد فترة صمت قصيرة: عمومًا، سوف أسافر الآن وسأنتظر منك برقية فى حالة النجاح بالتقدير بالمأمول.

تأكدت من تغلغل حبه فى قلبى.. إذ كدت أطير فرحاً وأنا أقرأ اسمه منفردًا بكشف الناجحين بالتقدير الذى أراده ليستمر فى دراسته.

كل هذا دار فى رأسى وأنا أرنو إلى وجهه الذى كادت تختفى ملامحه وراء شعر لحيته وشاربه، راجعًا بذاكرتى للوراء سعيًا وراء وسامته التى كان يحرص عليها، على الرغم من خلو جامعتنا من الجنس الآخر، ثم قلت له : أبدًا إيه .. لست أنت أحمد البدرى

الذى عرفته.. الشاب الطموح .. قوى الإرادة.. المصر على تحقيق هدفه.. مط شفته السفلى وقلب كفيه وهو يقول .. هذه العملات الجيدة لم تعد صالحة فى هذا الزمن.

سألته : ألم تعين معيدا..؟

ضحك حتى سالت دموعه على خديه، ثم قال : لا.. وهو يهز رأسه بأسى.. سألته متدهشًا : لم؟

ـ لأن خالى ليس النقيب.

ـ إذًا كان خال من ..؟

ـ تيسير بركات ، ورائد صدقى.

صحت مندهشًا : تقول من ؟!!

قال : ألم أقل لك أن براءتنا صورت لنا مجتمعًا متخيلاً لن يتحقق لنا إلا إذ تغير المناخ ككل.

ثم أردف .. كم أنا حزين على أيامى التى أضعتها سدى فى المذاكرة والتحصيل..

ـ يجب أن نتمالك حتى يمكننا التفكير فى طريقة تقودنا لتغيير الواقع، لا أن نندب حظنا ونتحسر على أيامنا.

ـ نخر السوس كل شىء.

ـ لم أرك هكذا ..!

ـ وأنت ؟

- يشغلنى التفكير فى إعادة بناء الإنسان فى خط متواز مع الإصلاح الاقتصادى.

هز رأسه ببطء وهو يقول : عظيم .. ليتنا نلتقى كثيرًا، ونفكر معًا بصوت؟

- .....

- وحبذا لو اخترنا البعض من زملاء الدفعة.

* * *

ألقيت بجسدى المكدود على السرير .. سريرنا الكبير القديم، ذو القوائم الأربعة السوداء الطويلة السوداء.. تساقط طلاؤها فانكشفت الندب، والحفر متناثرة فى كل أجزائها، تقف على أسنتها عرائس صفراء كدركات الحراسة، رأيتها صغيرة صفراء لامعة متلألئة، تبعث بريقًا يخطف الأبصار، فما بالها صارت ترابية كالحة، وما بال حوائط حجرتنا قد طوقتها الشقوق هكذا ..؟! خطوط طولية وأخرى عرضية ..؟! تجرى عيناى مع الطولية لأعلى حتى تتلاقى مع مراين الأخشاب حاملة السقف .. تتركزان على أجزاء منها تآكلت.. أكلنى الرعب .. ماهذا ..؟ سوس..؟ يتزايد نبضى .. يغطينى العرق .. أين نذهب لو وقع البيت..؟

بالكاد أخلع عينى عنها لتتلاقيا بالعرضية .. تحيط بالحجرة .. تحاصرنى.. ألح أبى قبل رحيله الأبدى على صاحب البناية أن يرمم البيت .

- ياحاج ... البيت سيقع.

- ليته يقع .

- حرام عليك .

- عليَّ أنا ..؟

- أرواح الناس ؟

- وروحى أنا ..؟

- روحك ..؟

- التى نهشتموها من زمن طويل.. إنكم تسكنون بملاليم، وترفضون المساهمة فى صيانة ما اتلفتموه.

(لا فائدة ، فهذا صاحب بيت لا تهمه مصلحة السكان).

- فوضت أمرى إلى الله.

- وهل يرضى الله الملاليم التى تدفعونها كإيجار..؟

- القانون.

- إذا كان القانون أعمى فأين ذهبت بصائركم ..؟

قال لنا : لا جدوى من المناقشة معه، وشد خطوه إلى مبنى المحافظة التى أرسلت مهندساً لمعاينة البناية.. انزعج لما صدمت عينيه الشقوق الطولية والعرضية.. قال : لابد من سرعة تنكيسه .. سيعيش سنين طويلة إذا تم تنكيسه.

قال أبى فرحًا وهو يشير إلى شقة صاحب البيت: قل له ذلك وليته يتم بأسرع ما يمكن.

- اطمئن يا حاج.

وغيبته جدران الشقة بداخلها، وانتظر أبى قلقًا، طال انتظاره لكنه تحامل على نفسه حتى انفتح الباب عنه مقهقهًا وهو يردد: لا لا .. اطمئن ياحاج.. سأقنعهم بمتانته ، وصموده لسنوات طويلة بلا تنكيس ولا يحزنون.

من يومها ركب الهم أبى .. لم يتركه حتى أدركه الموت.

* * *

قالت أمى وهى توقظنى : قم ياولدى ، فقد تأخرت كثيرًا على غير عادتك.. قلت متثائبًا: طول عمرى أصحو مبكرًا فماذا جنيت..؟ دعينى أجرب سلاح النوم.

استعاذت بالله من الشيطان الرجيم، ثم قالت : لا أصدق نفسى .. أنت تقول ذلك وأنت فى هذه السن..؟ لا لا يا أبني .. قم واغسل وجهك وتوضأ وصل حتى أعمل لك الشاى.

أحطت كوب الشاى بكفى، نفخت سطحه، رشفت بحذر، لم أحس لذة طعمه التى عهدتها منذ الصغر.

قالت تخفف عنى مرارة اليأس: قلبى يحدثنى أنها ستُفرج اليوم أو غدًا إن شاء الله.

طيبة أنت يا أمى، تظنين أن مشاكلنا يمكن حلها بالنوايا الحسنة والأمانى الطيبة، أو بكوب شاى وقرص أسبرين، أو بدعوة صالحة،

بالضبط مثل المفلس الذى يعيش عمره على أمل العثور على ثروة يحل بها مشاكله، ويطول انتظاره حتى يخطفه الموت.. آه يا أمى مازلتى تعيشين النقاء فى الزمن العفن.

قلت لها: يا أمى .. اليوم مثل الأمس والغد،، لا فرق بينهما إلا فى الأسماء.

قالت محتدة: ماذا جرى..؟ قم وارتد ملابسك واسع على رزقك، واعمل ما أمرك الله به .. فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور.

تمتمت قائلاً : صدق الله العظيم.

شيعتنى دعواتها وأنا أهبط الدرج متمهلاً.

عبأت صدرى بهواء الصبح الندى.. انحشرت فى أحشاء أتوبيس متورم البطن، حملنى إلى العنوان الذى نقلته من صحيفة الأمس.. لفظنى فى شارع نظيف، لامع، تؤطره الأشجار اليانعة وتغطيه الخضرة النضرة.. أين أكوام القمامة التى تُحرق يومياً فيحمل دخانه الموت لمن يعيشون حولها .. أين عربات الباعة التى تزحم شوارعنا..؟ أين الصخب والضجيج الذى يبعثانه..؟ أين باعة البوتاجاز الذين يدقون بالمفاتيح الحديدية على الأنابيب معلنين عن بضاعتهم..؟ لماذا لا تكون مدينتنا كلها بهذا البهاء..؟

وجدتنى فى مفترق طرق، فسألت عن العنوان ..

البناية عالية يغطيها زجاج بنى اللون، وشرائح الألومنيوم الفضية.. كان الزحام فى مدخلها على أشده، سألتهم عن السبب، فقالوا : مطلوب أعداد كبيرة من العمالة.

(يبدو أن السماء قد استجابت لدعائك يا أمى).

سألتهم عن نشاط هذه الشركة.

قالوا : الحراسة والأمن ونظافة المنشآت .

(آ آه يا أساتذة الاشتراكية .. حشوتم رءوسنا بكتاباتكم عن مجتمع الرفاهية، ومن كل حسب حاجته لكل حسب عمله، والآن تصفقون لنظام السوق والخصخصة والحافز الفردى وتسليم مقدراتنا الاقتصادية للغير، وهاهى منشآت حديثة، مودرن، من إفرازات سياسة الانفتاح اللعينة .. تستأجر العبيد بثمن أرغفة الخبز الحاف وتؤجرهم للغير بأضعاف أضعاف تلك الأرغفة، وتدس الفرق فى خزائنها لتعيد استثمارها فى مشروعات أشيك .. مطاعم بيتزا وكنتاكى وهامبورجر ، أو فى استيراد العمالة الأسيوية الرخيصة على حساب العمالة الوطنية ، وتتخم أرصدة أرباحهم ، وتتكاثر فى شوارعنا الناعمة الأسفلت ، الخالية من الحفر والنقر والمطبات سيارات البودرة والخنزيرة والشبح ، عنوان الرخاء والنماء الذى ينعم بهما أفراد شعبنا، ولتخرس كل الألسنة المغرضة التى تشيع أن البطالة والكساد تعمان البلاد.

زغردى يا أماه.. زغرودة طويلة حتى يسمعها الجيران وكل سكان الحارة ليجيئوك مهنئين بتعيين فلذة كبدك خفيرًا قد الدنيا..

خفير متطور يرتدى حُلة كحلية اللون وكابا وشرائط مقصبة على الأكمام.

لو سمحت يا أستاذ .. خذ دورك فى الطابور..

سألت آخر الواقفين فى الطابور : هل تقف من مدة طويلة..؟

- يعنى .

- لأى الوظائف ستتقدم ؟

- أمن .

(آآآه .. خفير يعنى ..؟!)

- ماذا ..؟

آآ .. وهل يشترطون المؤهل لشغل هذه الوظائف ..؟

- بكالوريوس أو ليسانس.

- طبعا .. على الأقل .

- وأنت .. ما مؤهلك..؟

- بكالوريوس تجارة.

- أمن أم ن - ..

- أمن أو نظافة أو حتى حمّار .. لا فرق.

- لا تبتئس ، فكل المتقدمين جامعيون ..

- هاه .. وربما كان من بينهم حملة الماچستير والدكتوراه.

- نعم .. نعم .. فلكى تكون رجل أمن على درجة عالية من الوعى أو عامل نظافة مثقف ، على دراية واسعة بطرق التعامل

المتطورة مع المقشات والمهفات، وأحسن الطرق فى مسح البلاط. ثم بعد فترة صمت قصيرة .. ومن لم يعجبه العمل بالحراسة أو النظافة فليذهب إلى أحد البنوك ويستلم سيارة ربع نقل ويملؤها خضر او فاكهة ويقف بها على إحدى النواصى، ويزعق بأعلى صوته .. لا تين ولا عنب زيك يا أمهات، يا أبو نقطه يا مغربى يا موز .. حمار وحلاوة يا بطيخ ، أو يشترى عربة كشرى أو حمص الشام، أو عربة فيشار ويقف بها أمام إحدى المقاهى ، وآهو كله «بيزنس» وكله مكسب ، واللهم لا حسد.

قال آخر وقد اكتسى صوته بالأسى : هكذا يفكرون لنا ، فماذا تريدون أكثر من هذا أيها الحاقدون الموتورون..؟!

يزحف الطابور .. أقترب .. أدخل .. أجلس أمامهم .. أرنو إلى وجوههم.. لم تلفحها حر شمسنا ، وجوه لامعة ، بيضاء ، مشربة بالحمرة ، وشعور صفراء .. ناعمة .. حرير ، وأعين ملونة كأعين القطط.

إسمك..؟ سنك..؟ مؤهلك..؟

- عاصمة إنجلترا ..؟

- برافو .. مبروك .. أمن

يا ولاد الكلب .. عاصمة إنجلترا ..؟ ما علاقتها بالأمن أو النظافة..؟! عموما مبروك يا أمى .. أخيرًا ربنا عوض صبرنا خيرًا، وولدك فاز بالوظيفة الأمل.. ألم يقولوا إن خريج التجارة

«چوكـر»؟! غـدًا أرتدى البـدلة الكحليـة اللون وأتبـاهـى بالشـرائط المقصبة، وأدق الأرض بقدمى.. أخرقها متباهيًا بنفسى.. وسأنفخ صدرى وأنا أسير بين الناس .. لا .. بل سأطير فوق رءوسهم.

يا سـاتر يارب .. مـاهذا ..؟ البناية تهـتـز .. تتـأرجح ، والناس تتـصايح .. تصـرخ .. تزعق .. تتدافع .. تجـرى باحثـة عن الدرج.. أجـرى مـعـهم .. بينهم .. تتـدافع الأيدى ... الأرجل .. المناكب .. هاهو السلم.

زعق أحدنا فاندفع الكل نحوه.. خفت أن أقع .. تهرسنى الأقدام المندفعة .. تتكسـر ضلوعى ويتهشم رأسى.. أموت قبل أن أحضـر أول اجتماعاتنا المتفق عليها.. آآه.. سيظنون بى الظنون، أو يبررون غيابى، ويؤجلون اجتماعهم لأجل لاحق.

آه لو يمكننى أن أقفـز الدرج كله دفعة واحدة .. لكن كيف، وكل هذه الأجساد تزحمه..؟ الأفضل أن أنتظر قليلا.

الحمد لله .. أصبحت خارج البناية .. يا ااه .. من أين جاء كل هؤلاء..؟ الجـارى والواقف والذاهل والصـارخ والنـادب والمتـضـرع والباكى، والذاكر اسم الله، والمستغفر من ذنوبه و..

وجـدتنى أجـرى .. السـؤال يلح على رأسى.. مـاذا هى فـاعلة الآن..؟ هل وقع عليها البيت القديم؟ أم مازال صامدًا ..؟

أجرى.. أجرى .. ألهث .. تلفنى دوائر الغبار المثارة من سقوط بعض الجـدر القـديمة .. تحـجب زرقـة السمـاء، تلون المرائى .. كل

المرائى .. تتقطع أنفاسى .. أقف .. أشير للمركبات المجنونة .. أرفع أبهامى أصرخ .خذنى معك .. خذنى معـ..

أبدًا .. تجرى المركبات .تمرق .. تصرخ دواليبها .. أصرخ .. خذ .. نى معـ ..

هاهو شارعنا .. يااااه .. ماهذا .. أين واجهة منزلنا ..؟

أمى.. أين أمى .. ها .. هاهى تقف فى حجرتنا خائفة.. مذعورة تمد ذراعيها على آخرها مستجدية .. زاعقة : الحقونى ... بينما الجدران تهتز بعنف ، ودوائر الغبار تتكاثف .. تعلو .. تتناثر.. تحجب الرؤية.

إبريل ١٩٩٥

كلاب المدينة

كلاب المدينة

أثرت البقاء تحت الأغطية لبضع ساعات أخرى لأستمتع بالدفء، متمترسًا تحتها من برد الشتاءالقارس.. حشية مرتبتى من قش خشن، ألفته من طول رقادى عليه حتى يخال إلىَّ أن النوم سيجافينى لو استبدلتها بفراش ناعم.. أما حجرتى فقد غاص نصف جدرانها تحت الأرض، فاستحالت إلى مقبرة أكلتها الرطوبة، وتشبع به هواؤها، فأعطبت رئتى وعظامى، ولأنها صارت كذلك فالعتمة تفترشها طوال النهار، عدا سويعة تتسرب خلالها بعض أشعة الشمس إليها على استحياء، فأتدحرج إليها فرحًا، وما أكاد أستقر فوقها حتى تنسحب هاربة قبل أن يصيبها رطوبة الحجرة... لما تشبعت عظامى به أخشوشنت مفاصلى، فباتت. حركتى شديدة البطء وصرت أقضى يومى إما راقدًا أو قاعدًا، مستندًا إلى الجدار الملاصق للنافذة الغاطس نصفها تحت الأرض، والمسيّجة بأسياخ الحديد.. أطل من بينها على الحارة كسجين ، فلا أرى إلا أقدام الناس وسيقانهم، فى البداية لم أكن أعرف أصحابها، ثم صرت أربط بينهم وبين أصواتهم، ولما طال بى الأمد على رقادى صرت

أعرفها بمجرد النظر إليها ... فهذه أم إبراهيم صاحبة الأقدام التى لا تقربها الماء، المتشقق جلدها، الطويلة الأظافر، وهذه قدم شعبان الحلاق، المندسان دوما فى شبشب بلاستيكى لا يمنع عنها الأتربة ووسخ الطريق، أما هذان فقدما سعاد إبنة صاحبة المبنى ... ساقان بيضاوان عاجيان ، وكعبان تكسوهما حمرة وردية.

آآآخ.. يبدو أن الرطوبة تسربت إلى الأربطة القَطَنية أو فقرات العمود الفقرى.. تؤلم ظهرى .. تقيد حركتى، صرت أقضى يومى راقدًا على شقى الأيمن أو الأيسر .. لا يؤنسنى فى وحدتى سوى صوت مذياع أو مسجل يتسرب إلى أذنى من بعيد ، فيكسر حاجز العزلة الذى وجدتنى فيه .. إيه يا أبى .. أين أنت..؟ تركتنى وحيدًا ولم تعد تزورنى منذ أن حل الشتاء.. هل صرت تعانى مثلنا من ضيق الوقت، أم من طول الانتظار وراء إشارات المرور، أم من قرف المواصلات وسماجة سائقى «السرفيس»..أم أن ما صار إليه حالى ما عاد يسر عدو ولا حبيب فآثرت الابتعاد..؟!

عمومًا أطمئنك ، فقد نصحنى بعض جيرانى الطيبين بألا أهمل نفسى وأبحث عن طريق لعلاج أكيد فيه طريقة للعلاج .

- أكيد فيه طريقة لعلاج حالتك.

إيدى على كتفكم.

إسأل واحنا معاك

طب والتكاليف ؟

روح الكومسيون الطبى وقدم لهم طلب، اشرح فيه حالتك وظروفك .. اشتريت عصا لأتوكأ عليها، وخرجت فى غبشة الصبح متحسسًا طريقى، مجرجرًا خطوى نحو محطة الأتوبيس، دقات ساعة الجامعة المنبعثة من مذياع قريب تعلن السابعة... أخذ البعض بيدى وأركبونى أتوبيسًا مزدحمًا، أمر الركاب صبيًا أن يجلسنى مكانه، فقام يبرطم غاضبًا وأجلسنى. بس كان المفروض يكون معاك حد يسندك يا حاج.

ربنا مع الجميع.

ونعمة بالله.

قال شيخ كبير : ربنا ما يحوج حد لحد

قال آخــــــر : يقصد حد من أولاده

قــال الشــيخ : أى أولاد يا بنى .. اللى ربنا مـا أرادش بيـهم، والحـمـد لله لولا قـرشين المعـاش كنت دلوقت مادد إيدى للناس وباقول لله يا محسنين.

قــال ثــالــــث : والله المعاش ده أحسن حاجة عملتها الثورة للناس، مساكين شباب اليومين دول، السكينة سارقاهم... عشر سنين بطالة بعد التخرج، وضياع تام بعد بلوغ سن المعاش.

ماحدش دلوقت من الرأسماليين الجدد بيأمن على اللى بشتغلوا عندهم، ولا عاد فيه نقابات تطالب بحقوق العمال، والشباب مساكين مضطرين يقبلوا أى حاجة.

قال رابـــــــع : حيعملوا إيه لو رفضوا .. حيترموا فى الشوارع.

قال الشيخ : أووه ... قلبتوا علينا المواجع .

زعق على السائق : المحطة الجاية وحياة والدك.

(ماهذا .. شارع نظيف، وأرصفة لامعة، وخضرة يانعة تحتها، ورجال شرطة موفورو الصحة، بألبسة نظيفة وأزرار لامعة، كأنهم أتوا إلينا من بلاد بعيدة أو هبطوا من السماء، أو أن هذا الشارع بكل ما فيه جاءنا من غابر الأزمان لما كانت شوارعنا نظيفة ولامعة، محفوفة بأرصفة عريضة للمشاة.

قال لى واحد من المارة لما رآنى أقلب عينى فيما حولى منبهرًا وهو يشير إلى مبنى على يمينى : ده مبنى رئاسة الوزراء ، واللى على الرصيف التانى مجلس الشعب، فانزاحت عن عينى علامات التعجب.

سألته: والكومسيون الطبى..؟ أشار إلى مبناه، فشددت إليه الخطو ولسانى يلهج بالحمد لله ، إذ يبدو أن الأمور ستسير على مايرام ، وياسلام لو أحصل على القرار اليوم حتى لا أكرر هذا المشوار، وأذهب من صباح الغد إلى المستشفى.

لكن لم كل هذا اللف والدوران ـ أذهب إلى القومسيون وأقدم طلبا ، والطلب يعرض على لجنة، واللجنة تطلب أشعة تحاليل وتقارير طبية، ثم تعقد مناظرة مع المريض، ثم يجرى بحث عن حالتى الاجتماعية، ثم أدور أبحث عن واسطة أو أفتح مخى وهذا أضعف الإيمان، وإلا فتعال بكره أو بعد أسبوع، ثم يا عالم.. إما أن

يصدر القرار، وإما يرفض الطلب من أساسه، لأبدأ من جديد مرة أخرى، و .. دوخينى يا لمونة.

يا ساتر يارب .. ما كل هذا الزحام أمام المبنى..؟ أين مدخله...؟ لابد أنه توارى وراء الأجساد المتلاحمة.. شيوخ وكهول وعجائز وشباب وتعاسة وأحزان وهموم ثقيلة تطل من الوجوه.

أمعقول هذا ...؟! كيف سأتمكن من الدخول وسط هذا الخضم؟! بل كيف يمكننى الوقوف بينهم..؟ يا لطيف اللطف يارب ... لا لا هذا مستحيل .. إذًا ما العمل..؟ لا أعتقد أننى سأتمكن من الدخول اليوم بأى حال من الأحوال، لأجلس قليلا على هذا السور قبالة المبنى حتى أريح جسدى وساقى قليلا ، وحبذا لو استطعت أن أسند ظهرى لجدار.

خد بايدى يا بنى لأعبر الطريق، قعدنى على السور ده .. أيوه .. هنا .. جنب الحيطة دى.. الله يبارك لك فى شبابك.

ما إن جلست حتى سحبنى النوم إلى رحابه .. تهلل وجهى بشرًا لما أبصرته مقبلا نحوى.. جريت إليه . سألته فرحًا : إنت جيت يا آبا ، وليه الغيبة الطويلة دى؟ عامل إيه وأخبارك إيه ..؟

قال : أنا عال وزى الفل، عايش فى جنينه واسعاااه وهوا جميل وجو نقى.. لا فيه زحام ولا زعيق ولا خانقة مواصلات، ولا حاجة من دى أبدا، لكن الدور والباقى عليكم أنتم، مساكين ، حالكم لا يسر عدو ولا حبيب ، مش عارف جرالكم إيه .. إيه الفوضى اللى أنتم عايشنها دى، وراضيين بكده إزاى..؟!

سألته مندهشا : وايش عرفك..؟

قال : قلبى حاسس بيكم، واللى حسيته لقيته ، شفته بعينى، واتحققت منه، وحمدت ربنا على رحيلى عن دنياكم بدرى، بعد ما عشت فيها أجمل وأحلى الأيام ، وأتأكد أنى ما كنتش حاستحمل اعيش أحوالكم اللى أنتم عايشنها، كل جيلنا ما كانش حيستحمل، عشان كده كان لازم نرحل.

سألته : والعمل يا أبويا ...؟

قال : الحل فى أيديكم .. أنتم اللى لازم تغيروا كل ده.

قلت : أصل

قاطعنى قائلا : ما تضحكوش على نفسكم وتقوللى أصل وفصل ما حدش حينزل من السما يحل .

قال : لكم مشاكلكم .

قلت : نورنى .

قال : اصحوا من نومكم ، وسيبكم من التواكل اللى أنتم غرقانين فيه.

ثم تركنى ومضى مبتعدا .. صرخت .. أنت سايبنى وراح فين يا أبويا..

ابتعد ، فرحت أصيح عليه .. أبويا !!! أبويا !!!

- إيه يا حاج .. مالك .. فيه إيه ..؟ بتزعق كده ليه ..؟!

انتبهت ، فرحت أنظر إليه طويلا ، كانت عيناه مليئتين بعلامات استفهام كثيرة.

قلت له : شايف الشارع ده.. عشان تعديه لازم تحشد له كل عزمك.

كانت المركبات فى نهر الطريق متزاحمة.. متلاصقة.. نظرها لثوانٍ، ثم صاح قائلا : دا كان كابوس تقيل قوى يا حاج.

هززت رأسى ببطء وأنا أردد.. مش ملاحظ إن الكابوس طول قوى..؟

ثم قمت أجرجر خطوى بعد أن استقر رأيى على الرجوع إلى هنا ثانية بعد أن يوغل الليل لأقضى بقيته أمام الباب، فإذا ما جاء النهار أكون أول الداخلين .. لكن لا أقدر أن أعود بالأتوبيس بعد أن تكسرت عظامى وتصدعت رأسى فى رحلة المجىء.

لا مفر إذًا من التضحية بأجرة «تاكسى» .. مصروف يوم كامل.. الأمر لله.

تاكسى .. تاكسى .

وقفت أزعق فى نهر الطريق.. كلهم صنف واحد .. خنازير .. أنجاس .. تاكسى .. الهرم يا بنى .. الهرم لو سمحت .. الهرم الله لا يسيئك.

(طيب الواحد يعمل إيه مع صنف الكلاب ده.. يمسك فى خناقهم ويبهدل نفسه..؟ ساعة كاملة وأنا با حاول أوقف تاكسى .. ساعة كاملة ، فلوسى فى جيبى ومش قادر آخد تاكسى أروح بيه ، تبقى دى عيشه ..؟ لا ذوق ولا أخلاق ولا رحمة... إيه ده؟!).

- رايح فين يا أبويا ..؟

كما الجنى انشقت عنه الأرض .. أتلفت فألقاه إلى جوارى مبتسمًا .. شاب بسم الله ما شاء الله كالقلق .. طول بعرض .. الوجه أبيض مورد، وشنب آخر عظمة ، ومظهر آخر شياكة .. بدلة إيه، وقميص إيه .. آخر أبهة ..!

ـ الهرم يا بنى .

(طيب ما أنا عارف .. ها .. دا أنا واقف جنبك من أول ما ندهت على أول تاكسى)

سألته: بتقول حاجة ...؟

قال : لا .. أبدًا ولا حاجة.

ثم أضاف قائلا : ما تشيلش هم .. حالا أوقف لك سواق يوصلك وجزمته فوق دماغه.

(يا ااه .. دا باينه مهم قوى .. واحد من إياهم اللى واصلين .. واحد من بتوع اليومين دول) .

قال : تاكسجية كلاب .. ما عندهمش نظر ولا ذوق ولا فى قلوبهم رحمة.

(وباينه شهم وجدع)

أشار لأحدهم شاخطاً .. أوقف، فوقف ..

فتح الباب الخلفى وأخذ بيدى وأركبنى ، ولم أكد أفتح فمى لأشكره حتى وجدته جالسًا بجوارى ، وهو يأمر السائق قائلاً : شارع الهرم.

ـ أمرك يا باشا

(إيه ... باشا .. لا اا .. دا كبير قوى)

نظرنى وابتسامة كبيرة تطل من تحت شاربه الكث، وقبضة يده ممتدة نحوى، منتصبة الإبهام وهو يردد : شوف يا حاج .. دى ناس اجبن منها مافيش .. ما تجيش غير بالعين الحمرا .. آى والله.

تعمد أن يسمع كلامه للسائق فأحسست بالخجل ولذت إلى الصمت، فأردف قائلا : ما حدش دلوقت بقى عنده ذوق ولا أخلاق ولا رحمة ، وعشان كده أنا سخرت نفسى لخدمة أمثالك.. اعمل إيه ما اقدرش أشوف واحد كباره، محترم زى حضرتك وما اسعفوش.

(يا ابن الأبالسة .. كل يوم تصطاد لك واحد تركب معاه بلوشى ، وتعمل نفسك بتساعده)

ـ كتر خيرك يا سيدى .. لكن أنت ساكن فين ..؟

تجاهل سؤالى ، واتجه بعينيه إلى جانب الطريق، ثم أمر السائق بالوقوف .. هنا يا اسطى. ونزل ، وقبل أن ينطلق بى التاكسى أطل على وقال وبسمة غريبة تنفلت من تحت شاربه :

سلام يا چنتل.

أخرجت رأسى من نافذة التاكسى.

ونظرته بقرف وبصقت بغيظ، ولسانى حالى يردد كلاب.

عصفور تحت المطر

عصفور تحت المطر

تراكمت الغيوم فوق بعضها فألبست السماء ثوبا رماديًا غامقًا، كل المرائى باتت باهتة.. هبت رياح شديدة فأثارت غبارًا هاجم الوجوه.. ارتخت الجفون لتصد ذراته... اهتاجت أغشية الأنوف.. تطلعت الأعين إلى بساط السماء الرمادية تستجديها نقاط الماء، وكأنها قرأت ما بخواطرنا فأنزلت حبات المطر... همد الغبار.. التمع أسفلت الطرق، فقام الصغير يغادر مخبأه، يتمطى جسده النحيل المطل أكثره من الرتق المنتشرة فى ثوبه ليمرق بين المركبات المجنونة، معلنا بصوته الغض الأسيان عن علب المناديل الورقية المرصوصة بعناية فوق بعضها على طول ساعده بين كفه وكوعه.

بانت عظام صدره ورقبته من فتحه جلبابه فصار كأرنب مسلوخ، لكنه تحدى الريح الثائرة والمطر ورذاذ الثلج المنهمر فوق رأسه والصقيع..

همس لنفسه ... ولا يهمنى .. المهم أبيع شوية العلب اللى معايا، عشان اشترى الدوا لاختى وانا راجع البيت .. مسكينة .. الكحة نهشت صدرها.

مرق بين العربات .. معايا مناديل معطرة.. بجنيه العلبة بجنيه يا باشا .. بجنيه يا هانم .. أيوه أنت حتشترى منى أكيد ، قالها وهو يضع علبة فوق «تابلوه» سيارتها.

نظرته طويلا فأحست برفيف قلبها .. استلت ورقة خضراء من حقيبة يدها ، وضعتها فى يده .. نظرها طويلا ثم قال : معايش فكة.

قالت مبتسمة : الباقى عشانك .

اضطرب «تلجلج، ثم قال بصوت مرتعش : لا لا .. أنا عاوز جنيه بس ثمن العلبة.

ووضع الورقة فوق «التابلوه» مدت بها ذراعها إلى مداه ووضعت الورقة الخضراء فى جيبه وانطلقت .

جرى وراء سيارتها صائحًا : لأ .. لا ياست هانم ، لكن العربة كانت قد انطوت بين العربات المجنونة ، بينما أحس بجسده ينتفض، وعيناه تتقافزان فى حيرة بين الورقة الراقدة فى كفه والمدى البعيد الذى ابتلع العربة.

تقافزت خطواته نحو الرصيف، وظل ابتسامة يتسرب إلى شفتيه، وإحساس بأنه عصفور رشيق يطير فوق السحب يملأ

جوانحه ، لكنه ينتبه على دمعة ساخنة تسقط فوق نتوء عظام صدره لتختلط بحبات المطر النازل من السماء.. خاف على علب المناديل من البلل طواها تحت جناحه ، ثم مرق بين المركبات ، يسبقه صوته الفرح معلنًا عن مناديله المعطرة:

بجنيه العلبة .. بجنيه واحد

كل على شاكلته

كل على شاكلته

انتظره منذ زمن بعيد .. منذ أن تزوج وربما قبل ذلك بكثير ، ربما منذ أن كان وأخواته يلتفون حول أبيهم يناجونه ويضاحكهم، ويأخذهم تحت جناحيه فيسرى فى كيانهم الدفء، لكن السنين فاتت وتأخر مجيؤه، وطال انتظاره فناجى ربه .. «رب لا تذرنى فردًا وأنت خير الوارثين».. دعاك زكريا فاستجبت له، فهل أطمع فى كرمك..؟

ملأته الوساوس فراح يحدث نفسه كثيرًا، سبحان الله، كل الناس تتزوج، وكلهم يأتيهم الخلف بعد سنة .. سنتين ، ثلاثة .

وأنا ما زلت أنتظر وعلىّ أن ألوذ بالصبر ولكنى أخشى أن يأكل الدهر عمرى، وأصير شيخًا كبيرًا ويجف مائى، وتغدو امرأتى عجوزًا يعجز جرابها عن الامتلاء..

امرأتى...؟! يالها من امرأة صبور ، لم تشك أبدًا، ولم تسألنى عن الولد الذى لم يجئ..، ولم تبد قلقًا عن سبب غيابه.. هل معقول هذا..؟ أكيد أصابها القلق ، لكنها استطاعت أن تكبح

جماحه، نجحت أن تحجمه داخلها، كما فعلت، ولكن لابد أن هناك عيبًا ما .. فىّ أو فيها .. منى أو منها أو من كلينا .. لأفاتحها.

لا لا .. لا داعى لأن أفتح على نفسى بابًا لا أقدر على غلقه.

- بابا ..؟ فيم إذًا كان الارتباط وتحمل أعباء أسرة، والخضوع لرغبة أمى وأبى - بعد طول إلحاح - فى الزواج، والإقلاع عن السهر مع الأصدقاء، ومقاطعة الذهاب إلى النادى والمقهى ومباريات الشطرنج والطاولة، وسهرات الخميس الشهرية، نحلق فى الفضاء مع أجمل وأرق الأصوات وأرق الألحان وأعذب الكلمات.. يا سعده اللى عرف مره مرار الحب وحلاوته.

وياذله اللى طول عمره ما داق الحب وقساوته.

شعر إيه.. دا الكلام اللى ف. عينيك .

خلى أحلى كلام يغير. عطر إيه دا العبير اللى ف . أيديك ..

بيقول أيديك هى العبير.

وقضاء بعض ليالى الصيف على كورنيش النيل قبل أن يستولى عليه أصحاب الكازينوهات وأعضاء الأندية المهنية ويحرموننا منه، أو التجول طوال الليل فى شوارع القاهرة ... آآه .. ما أجمل شوارع القاهرة فى هدأة الليل وسكونه .. لماذا هى فى الليل بهذا الجمال الشاحب الأسيان ، الذى يملأ النفس بالبهجة والحزن فى آن...؟! ولماذا هى فى ساعات النهار قاسية، مستفزة، تبعث على الضيق

والضجر، بل والقرف.. ربما الزحام، ربما الفوضى، ربما كل هذا.. إحساس يبعث فى النفس الزهق، فيود صاحبها الفرار إلى الموت انتحارًا.

قالت أمى كبرت يا بنى: وباسم الله ما شاء الله كبر مركزك معك، صرت أستاذًا، وصارت لك عيادة فى وسط البلد، ومع هذا لم تفكر حتى الآن فى الزواج، فى أن يكون لك بيت وأولاد، لم يا بنى....؟!

قلت ضاحكًا: هل فعلت شيئًا أغضبك منى يا أمى؟

أجابت وقد وسمت من حدقتى عينيها: لا أمل فى الهروب هذه المرة..

قلت دون أن أتخلى عن بسمتى: تتعجلين حبسى؟

قلت نعم ... كفاك صرمحة..

ظل أبى متمسكاً بالصمت والتظاهر بالاستغراق فى قراءة الصحيفة التى أثقلت صفحاتها الإعلانات المستفزة حتى ضاق صدره بالكلام فباح به: إسمع كلام أمك يا بنى، ودعنا نفرح برؤية أولادك، فقد حُرمنا الفرحة بالخلفة إلا مرة واحدة، صمت قليلاً ثم تساءل:

هاه ... ماذا قلت ...؟

وترك عينيه معلقتين بشفتى..

(أرتبط، وأغامر بحريتى، أضعها فى الأغلال بإرادتى ... لماذا؟

لمجـرد أن يفـرح بأحـفـاده، ويطمـئن قلب أمى. أحـمل هـم أسـرة ومسئولية واحدة يريد أهلها أن يربطوها فى رقبة حمار يتحمل مسئولياتها ويخلصوا أنفسهم منها... طيب مقابل ماذا ...؟

قالت أمى وقد عيل صبرها من صمتى : ماذا قلت يا بنى؟ إننا نكلمك وأنت ولا هنا ...

نظرتها مليًا وشفتاى مطبقتان .

قالت : يوه ... ماذا قلت..؟

لا إله إلا الله .

أهه . على أمك ياولد..؟

حاضر.. سأفكر وأرد عليك غداً.

قال أبى ذات يوم بعيد ، ونحن نتنزه فى حديقة واسعة، مليئة بالأشجار والزهور، محاذية للنيل، وكثيرًا ما كان يخصنى بذلك حتى أنى لا أذكر مكانًا إلا وأخذنى.. إليه.. القلعة، القناطر الخيرية الأهرامات وأبو الهول، المتحف المصرى، الزراعى، القبطى والكنيسة المعلقة، جامع عمرو، حى الأزهر، الحسين، قاهرة المعز، ولولا حبى للطب لآثرت دراسة الآثار التى ألمت بالكثير منها، حتى أنى لما كبرت وجدتنى ملتصقًا به، حتى صار لى صديقًا، وأخًا كبيرًا.. سقانى حبه وحنانه فأحببت الجميع، وكان صادقا فى كل شىء فلم أحد عنه فى حياتى.

قال لى ذات يوم ونحن نحتسى شاى العصر: تعرف يا محمود يا أخويا، وكانت أول مرة يقول لى هذا اللفظ الذى حرمت منه.

ابتسمت ابتسامة واسعة من القلب.. فرحًا بالكلمة (يا أخويا) فأنارت البسمة صفحة الوجه، كما قال أبى وقتئذ. (يا آآه... لم أر مثل عذوبة هذه البسمة الصادقة على وجهك، حتى أنى قلقت عليك لما غابت البسمة من شفتيك، لكننى كنت أطمئن نفسى قائلاً: ربما يكون هذا سمت العلماء، لكن تعرف أحسن شىء أن تكون على طبيعتك.. على سجيتك، وليس هناك أفضل من البساطة. وأسوأ. شىء فى الدنيا هو الافتعال ..ابتعد عنه.. لا تلجأ إليه أيا كانت الأسباب. المهم يرجع مرجوعنا للابتسامة الحلوة التى أضاءت وجهك.. كانت بسبب أننى قلت لك يا أخويا، ليس منذ أن كبرت .. لا ... منذ أن ولدت وأنا أحس أنك أخى، فإخوتى الذين جاءوا من بطن أمى لم أعد أراهم.. تصدق بمن .. لقد كنا مرتبطين جدًا ببعضنا، حتى بعد أضطرارنا لترك البيت الكبير، وصار لكل منا سكن خاص، لم يكن يمر يوم أو يومان إلا ويرى بعضنا البعض، ثم فجأة انقلب الحال.. بالضبط كما تنكفئ لوحة على وجهها فيبدو وجهها الآخر الكئيب.. تصور ، من صورة رائعة لظهر كالح... مسامير صدئة ودوبارة متهرئة، هذا هو ما حدث لنا بين يوم وليلة، وربما بين سنة وأخرى، ما السبب؟ كثيرًا ما أقلّب كفى وأنا أطرح السؤال على نفسى منذ أن طرأ هذا التغيير على حياتنا وقلبها رأسًا على عقب.

قاطعته متسائلاً: قلت حضرت بين سنة وأخرى..؟

صمت مليًا ثم قال بعد أن زفر ألمًا: نعم... بالتحديد بعد ٧٣، وتطبيق سياسة الانفتاح، وبعد الحكمة التى أطلقها الزعيم: «اللى عاوز يكسب يكسب زى ما هو عاوز، بس يدفع للدولة الضرائب».

ثم بصوت ملىء بالأسى والأسف.. تصور أكبر مسئول فى البلد يقول للناس أسرقوا... انهبوا، فقط ادفعوا الضرائب.. هذا ما حدث.. سرقوا ونهبوا، حتى البنوك سرقوها.. تصور البنوك التى تضبط دفاترها يومًا بيوم لم تسلم منهم، وكانت النتيجة ظهور طبقة متخمة الجيوب، ورصيد بالملايين فى البنوك، وعقول خاوية، مظلمة، مسطحة.. وكلهم حملوا لقب رجل أعمال ودخلوا لعبة الاستيراد.. أستوردوا كل شىء، حتى لحوم الطيور الجارحة، واللحوم الفاسدة، والأسمنت المخلوط بالتراب، وزحموا الطرق بالسيارات من كل الدول الصناعية، حتى النفايات لم يتركوها، وفى النهاية باعوا القطاع العام وخصخصوا الكهرباء والمياه والصرف الصحى وسرحوا العاملين تحت ستار المعاش المبكر، وانضم الآباء لطابور البطالة مع الأبناء، ليقضوا بقية أيامهم تحت خط الفقر، ليزداد عدد المهمشين.. سقط ليصبحوا متاعًا.. لا لزوم لهم.. كل شىء أصبح يقيم بالمال ... الذى معه أفضل من غيره، والذى يملك أكثر أفضل ممن يملك أقل، فأصبح الكل يحارب ليكون الأفضل.. يحارب كل شىء .. الزمن والناس، دون الأخذ فى الاعتبار أية محذورات، فالكل لم يعد يهمه شىء حتى أصبحنا على ما نحن عليه الآن، والمشكلة أن الكل يشكو من الكل.

سـألتـه لأصـرفـه عن حـالة الحـزن التي احتوته تمامًـا: أفهم من ذلك أنك لا ترى أعمامى وعماتى...؟

قـال : نتكلم فى التليـفـون... فـقط نتكلم فى التليـفـون ونطمـئن على بعضنا.

إزيك يا حسين .. عامل إيه .. إزاى ولادك؟

إزيك يا مـحـاسـن ياختى، وإزاى جـوزك..؟ كلمـتـان أو ثلاثة و.. طيب.. خلينا نشوفكم.. تصور كلمتان أو ثلاثة بعد أن كان البيت الكبيـر يجـمـعنـا كلنا.. كل ذرية جدك الكبيـر يعيشـون فيـه.. حتى يتخرجوا ويعملوا ويتزوجوا وتكبر خلفتهم فـيه، لكنه قدم.. شـاخ خوخ ثم تهدم، فتبعثرنا، كل ذهب إلى طريق .. صحيح إننا فى حى واحد، حرصنا على ذلك حتى نحافظ على ارتباطنا، لكن أين نحن من هذه الأمنية الآن..؟

يبدو أننا كنا نحلم.

قـاطعتـه قـائلاً: ولكننى أزورهم يا أبى.. عـمتى مـحاسـن مـا أن ترانى حتى تهتف فرحة: أهلاً صالح حبيبى، وتأخذنى إلى حضنها وتروح تتحسس وجهى بأصابعها وصدرى وكأنها تروينى بحبها. دائمًا تنادينى باسمك وأحاول أبدًا أن أصححه لها.

يهز رأسـه فى أسى، وهـو يتمتم: قـادر أن يعيد لنا أيامنا الأولى التى أحببناها كثيرًا.

ضغطت على زر الجرس. كعادتى ـ بعد الانتهاء من كشف الحالة التى كانت أمامى، وانتظرت، فاجأنى بدخوله متوكئًا على عصاه، يفتعل سعالاً، بينما يده الخالية موضوعة على صدره، جلس على

أحد الكرسيين أمام المكتب مرددًا بصوت افتعل وهنه: السعال يلازمنى من مدة حتى استحال علىّ النوم، وليست لدى شهية للطعام، وأشعر كثيرًا بالدوار.. السن بقى يا بنى.. عمك أصبح عضمة كبيرة.

قهقهت قائلاً: تقصد عضمة جامدة يا عم صالح.

نظرنى مندهشًا ثم قال : مازلت تذكر أسمى ياعكروت منذ آخر زيارة لك من حوالى مائة عام..؟

هذا هو أبى، ولكن ماذا عن أمى..

كانت تخاف علىَّ من الهواء مثل أى أم لها ابن واحد، مجرد أن أكح أو أعطس... ياحبيبى يا ضنايا ، عينى عليك يا أخويا، تحتوينى فى صدرها وتغطينى بجناحيها وكأنها تريد أن تدفسنى فى حناياها ، ويروح لسانها يلهج بالدعاء: يارب اكلأه بعنايتك وحفظك.اضحك أسألها : أشمعنى اكلأه هذه..؟

تبتسم فتنبسط صفحة وجهها، ويذهب عن كدر الخوف، ويحمر خداها خجلاً، تخبطنى على كتفى بباطن يدها وهى تقول: كان أبى - جدك - يرددها دائمًا مع كلمات كثيرة غريبة مثلها.. كان أزهريًا يا ولد، حافظًا لكتاب الله، يقرأ كثيرًا وينام قليلاً.

كانت لا تنام قبل أن تغطينى وتأخذنى فى حضنها.. كانت تحس بألمى قبل أن تخرج الآهه من فمى.. تطبطبنى حتى تطمئن على شفائى..

أقول لها : لقد كبرت يا أمى.

تقول ضاحكة : على أمك يا حبيبى..؟

وطبيعى أن تكون من على شاكلتها سريعة البكاء، قريبة الدمعة، لكن العجيب أن أبى القوى، الصبور، الحكيم يشاركها هذه الصفة، أما أنا فقد خالفتهما فى ذلك، فقد كانت دمعتى عزيزة..، بل عزيزة جدًا - كما يقولون - احزن حزنًا شديدًا لسفر صديق، أو فراق عزيز، ويدمى قلبى ألمًا لرؤية مريض اشتدت عليه وطأة الألم، واضطرب لساعات دون أن أذرف دمعة واحدة، لكنى أحسها تسقط فى أحشائى فتحرقها.

قالت مستنكرة وهى تتطلع إلى وجهى: ألم تفكر بعد...؟!! وقال أبى مبتسمًا: ليس هناك مفر هذه المرة.. لابد أن تبدى رغبتك وتقول حاضر.

قلت مستسلمًا : حاضر يا أبى .. حاضر يا أمى .. اثنان على واحد، لابد أن تفوزا.

قالت فرحة : ألف بركة .. اختر واحدة.. أى واحدة أشر عليها، فقط أشر عليها تجدها عندك.

قلت مغتاظًا : يا سلام .. طيب اخترت بنت الشاه.

قال أبى مستنكرًا وهو يضغط على شفتيه حتى لا يفضحه ضحكه: أتريد أن تقترن بنعجة...؟ وأطلق ضحكاته فضج المكان بضحكنا.

واعتقدت أن الأمر انتهى بهذه القفشة الحلوة من أبى، لكننى فوجئت بالأعين تحاصرنى متحفزة، فأسرعت قائلاً: ابنة عمى.

وفى ليلة جمعت كل الأحبة تزوجت، وعلى الرغم من أننى أستأجرت شقة واسعة فى إحدى المدن الجديدة البعيدة، إلا أن الحزن الذى أطل علىّ من أعينهما، الحزن لفراقهما بعد هذه العشرة الطويلة، وفى هذه السن التى يحتاجان فيها لرفيق جعلنى أعيد التفكير ثانية، بل والتفكير فى البقاء معهما فى نفس السكن.

حدثت زوجتى فى ذلك فلم تعترض، فتبدل حزنها هناء، حتى كادت أمى أن تزغرد، لكنها لم تفعل إلا يوم أن عرفت بحمل زوجتى، زغردت وهى تقول فرحة: الحمد لله لم تتأخر، أما الشيخ فكاد يطير فرحًا وهو يردد: ألف مبروك ياولدى.. ألف مبروك يا ابنتى، ولكن اسمعى، إننى جد فرح بحملك هذا، ولكن أعلمى أن فرحى سيكون أعظم فى المرات القادمة.. أريد عشرة أحفاد، عشرين حفيدًا.. أحفادًا كثيرين يملئون علينا البيت.

ضحت وضحكت وهى تقول لعمها: عشرة عشرين، ثلاثين .. أحمدك يارب.

وجاء الولد صارخًا باكيًا، رافسًا الهواء بساقيه الصغيرين، وذراعيه.. أخذته جدته بين يديها تهدهده، تناغيه وتغرق وجهه قبلاً ويوم سبوعه تجمع أطفال البيت والشارع والعائلة، ملأوا الشقة غناء وصراخًا وسرسعة.. برجالاتك حلقة لولى فى وداناتك، ورنت

دقات الهون، ووضعوه فى الغربال، وهزته الأيدى المدربة، وتخاطف الصبية علب الحلوى المليئة بحبات الفول السودانى والحمص والبونبونى.

وبعد السبوع بأسبوع مرض الولد، أرتفعت درجة حرارته وارتعش الجسد الصغير الذى أكلته الحمى، وجفانى النوم فسهرت بجانبه أطببه.. أضع على جبهته قطع القماش المبللة بالماء والثلج، وأسقيه الدواء... نحل الجسد الطرى واعترته الصفرة، لم يحتمل الجسد الغض المزيد واستسلم ليد الموت ... مات وتركنا للوعتنا ، صرخت أمى ولطمت زوجتى ونهنه أبى.. انفلت صوته من وراء منديله الذى وضعه على فمه، أما أنا فقد حملت حزنى داخلى .. أحتبسته فى أحشائى وانكفأت على نفسى أسائلها عن فلسفة الموت الذى يجىء بغتة لخطف الأحبة ويدمى القلوب.. لماذا..؟ لماذا ..؟

ويبدو أننى صرخت وأنا أردد السؤال ملتاعًا، فجاءنى أبى مهرولاً وأخذنى إلى حضنه قائلاً: وحد الله .. تحلى بالصبر .. أنتم صغار، وغدًا يعوضكم الكريم خيرًا منه، ثم أمرنى أن أردد قوله تعالى: (إنا لله وإنا إليه راجعون).

رددتها وراءه فنزلت السكينة على قلبى بردًا وسلامًا، ولم أكن أدرى أن هذا الرجل القوى، الجلد الذى اعتاد مواجهة النوازل بالصبر، والذى انتشلنى بكلماته من بحار الحزن على شفا الموت، فقد كان صحيح البدن، معافى. أبدًا لم يشك، لكنه جاءه بغتة وقبض روحه بغتة وأنسل مبتعدًا دون أن يترك لنا فرصة لنودعه.

كان يقرأ صحيفته التى اعتادها، ولولا سقوطها على حجره لما أدركنا موته.

أمى ولولت وصرخت وبكت، تشوش شعرها وانفتح جيب جلبابها، وانسالت دموعها مختلطة بسواد كحلها على خديها ، فاختلط بريالها ومخاطها...

أخذتها أختها بين ذراعيها ... ضمتها إلى صدرها، ثم قالت لتخفف عنها لوعتها.. وحدى الله ... حرام عليك... اصبرى .. ترحمى عليه.

آآآه.. مات أول الأحبة .. مات أخى الأكبر وتركنى وحدى... إسودت فى عينى الدنيا.. أطبقت على جسدى.. على أنفاسى.. أكاد أختنق.. أموت.. ليتنى أموت وانتهى، ووجدتنى أتجمد.. لا تطرف عينى ولا ينطق لسانى، أحتبس نطقى وتحجرت الدموع فى مقلتى، لكن قلبى يدمى.. ينزف ، تتساقط نقاط فى أحشائى .. تحرقه. آآآه.

جاءت العمات والأعمام وزملاء أبى فى العمل والجيران وزملاء الصبا.. الدموع تغسل الوجوه، تتصاعد، نهنهة الرجال... كلهم يبكون إلا أنا، بكائى صامت، كل ذرة فى كيانى تبكى إلا عينى، جفت الدموع فيهما، فاتهمنى الناس بالجمود والبرود وعدم الإحساس.

- كل الناس تبكى إلا ابنه.

- عجبًا .

- تقولى حجر .

همست أمى فى أذنى : أعلم أنك أكثر حزنًا ، ولكن يجب أن تبكى ، إبك يا ولدى كى تتخلص من أوجاعك.. أذرف الدمع وأقطع ألسنة الناس.

صرخت، لطمت وشققت جيبى، ورحت أضغط أجفانى مستجديًا الدمع، فأبى، فلما أبى بللت خدى بريقى، ولما جن الليل وانصرف الناس أحسست بخَور قوتى ووهن بدنى وهوانى لنفسى واحتقارى لها، وأويت إلى فراشى ممزق النفس.. علنى أغفو فأهرب من نفسى، لكن كيف فعلت ذلك.. أفتعل البكاء..؟! أمثل أحقر الأدوار يوم موت أبى لأرضى الناس..؟

لماذا طاوعتها؟ لأرضيهم.. يا للهوان ... تفو ... اتفو.

آآى ... إهئ إهئ إهئ وذرفت عيناى الدمع غزيرًا... ساخنًا، حتى حرق كبدى، وظللت مسجيًا فوق فراشى، شاخصًا ببصرى إلى السقف حتى مطلع الفجر.

فما رأت زوجتى شحوب وجهى فى الصباح حتى صرخت ملتاعة، جاءت أمى مهرولة على صرختها، راعها كمية الدمع التى غسلت غطاء وسادتى فأخذتنى إلى حضنها، بينما جرت زوجتى إلى المطبخ وجاءتنى بكوب ماء.

أنين الروح

أنــين الــروح

جرجر الحمال العجوز ساقيه فوق رصيف المحطة بعد أن غطى كتفيه وظهره المحنى بالحقائب، ينوء بحمله الثقيل وسنوات عمره الطويلة.. ضمر عوده وجف دمه من أثر ما قاساه خلال سنوات عمره القاسية، جاهد ألا يسقط تحت حمله.. زحف وراء الخلق فبدا كعربة بلا ملامح يدفعها الريح.. قرقرت بطنه وغامت عيناه وتصدعت رأسه من شدة الجوع... ناء بحمله فانحنى أكثر حتى كادت رأسه تلامس الأرض.. كل جزء فى جسده تقوس.. ينبعث من فمه أنين ومن أنفه حشرجة.. سرى الوجع فى كل أجزائه.. ساقيه وكتفية وذراعية، فكر أن يلقى بحمله ويركن إلى جدار.. يغمض عينيه ويمدد جسده ويروح فى سبات عميق لم يذق طعمه طوال عمره، فربما يسترد عافيته، لكن أنى له ذلك وصاحب الحقائب تدب قدماه بقوة فوق أسفلت المحطة، تكاد تخرقه، فتحامل على نفسه وراح يسحب ساقيه حتى خلص من حمله، ثم راح ينظر إلى كتفيه وذراعيه وساقيه ليستوثق من أنه لم يفقد شيئاً منها أثناء

مـشـواره المضنى.. صلب طوله فـوق سـيف الرصـيف المقـابل لبـاب المحطة.. مرقت سيارة أجرة من الطريق الضيق ووقفت قبالته.

قال للسائق مستجديًا : ساعدنى يا أسطى.

كان شـابًا فى عمر ولـده الذى لم ينجبه.. نظره متعـاليـا دون أن يحرك سـاكنًا فقال الأمر لله ، وراح ينقل الحقائب .. حقيبة حقيبة إلى شبكة العربة المثبتة فوق ظهرها.

مسحت عيناه الخرزيتان الورقة المالية الصغيرة المستكنة فى كفة، فدمدم غاضبًا.. خمسة جنيهات يا عديم النظر ، لو كانت راقصة كم كنت ستعطيها..؟

إلى الطوار المقابل سار بقطيع همومه، تحتضن كفه «سندوتشى» الفول والطعمية.. ارتكن إلى جدار، مسحت عيناه المكان قبل أن يلتهم لقيماته.

«يا ترى كم تبقى معى..؟»

تراءى له وجه زوجه وقد وضعت الإبرة المعدنية فوق اسطوانتها المشروخة: كام يا سبع البرمبة .. كم كسبت اليوم .. أربعة جنيهات .. ماذا سنفعل بها .. و .. أ ..

لا يريد أن يسمع شيئًا ، فقد سد أذنيه وأغمض عينيه، ليعيش مع اسطوانته هو .. من عرفه عليها.. لماذ اقترن بها هى بالذات..؟ لكنها جد مظلومة .. لكن ماذا أفعل وأنا من يومى فقرى .. أورثيه أبى عن جده .. لم أهنأ بيوم من عمرى..

تعال يا حمار.. روح يا غبى .. صرخ بها الأسطى فى وجهى، ورمانى بالمفتاح ١٣ المعدنى على طول ذراعه فأطاح بقطعة كبيرة من جلد وجهى ، فررت منه إلى مكوجى وضع المكواه ساخنة فحرق أصابع كفى لما تأخرت قليلا فى مشوارى المكوكى بين المحل وسكنى الزبائن، فانتقلت لأعمل لدى ترزى فراح عماله يشكشكون جلدى بإبرهم لما تباطأت فى تطير العصافير[1] فهربت بجلدى إلى الشارع.. أقضى يومى متسكعًا بين الخرائب وأكوام القمامة بين الكلاب والقطط.. التقط لقيمات وثمرات فاكهة معطوبة أسد بها رمقى، وأنا فى الأماكن المهجورة، لكنهم لم يتركونى لحالى، فقد انقضوا علىَّ من كل جانب وضربوا كل جزء فى جسمى.. تكورت على نفسى وحاولت أحاطته بذراعىَّ وساقىَّ وكتمت صراخى، وظلوا يضربون ، حتى سمعته يصرخ فيهم.. كفى ، كان طويلا كباب.. قال : يبدو أنه خامة طيبة.. هاتوه.

بعد يومين بت فيهما بينهم فى الطل، وأكلت معهم مما يشحذونه من الناس ، أعطونى خرفة قذرة، وحددوا لى مكانا أمام مطعم يقدم أطعمة فاخرة، يأكل فيه أناس يركبون سيارات فخمة ... أتظاهر بتنظيفها حال رؤيتى لهم مقبلين نحوها .. يهشوننى كذباب، لكننى أظل واقفًا لا أتحرك ، حتى أنال الربع جنيه أو حتى البريزة.

---

(١) تطيير العصافير : التدريب على سرعة الحياكة اليدوية، بإدخال إبرة بخيط غير معقود الطرف فى قماشة وإخراجها بسرعة كبيرة من الطرف الآخر وهكذا .

لم يهدأ أبى حتى عثر علىَّ ، ليتنى ضعت للأبد، فربما كانت الصياعة أفضل، وربما كان النوم فى الطل أدفأ، فما فائدة حجرة استأجرها ولا تأوينى، وما فائدة أجر اتقاضاه لا يكفينى، وزوجة نكدية وأربع بطون لا تشبع، وعشر أعين تسلط علىَّ حال رجوعى كل مساء، وكأنها تسألنى: هاه.. ماذا أحضرت لنا..؟ لم يعد لى مهرب إلا الموت لأرتاح مما أعانيه.. لماذا لا يجىء .. أين أنت يا ملك الموت لتقبض روحى وتنتشلنى من هذا الشقاء... ليتك تجىء الآن ... نعم .. الآن .

رآه ماثلاً أمامه، يخرق صوته الرعدى أذنيه: لبيك عبد الله...

ذعر .. انقبضت أساريره.. زاغ بصره .. تداخلت المرائي أمامه .. التصق بالجدران.. انكمشت أعضاؤه .. إبتل سرواله .. أعياه البحث عن لسانه حتى وجده .. تلعثم فى سؤاله: ماذا .. ما .. ذا .. تريد .. لماذا .. جـ جئت ..؟

- لقد أسأت الأدب وطلبت ما ليس لك بحق، ومع هذا فهأنذا أمامك لأحقق طلبك.

- لا لأ.. لقد أسأت الأدب حقًا ، فلا تعاملنى بإساءة أدبى، فقد ظننت خطأ أن الموت راحة لى من هذا الشقاء.. و .. سوف ..أ ..أ.

ينظر يمنة ويسرة فلا يبصره .. أطمأن قلبه .. أخذ نفسًا عميقًا .. امتلأ صدره بالهواء .. تمتم فرحًا : الحمد لله .. الحمد لله ... لم أمت .. ما أجمل الحياة بكل مآسيها.

الداهيـــة

الداهية

فى نفس اللحظة التى تعودت فيها أن أصحو من نومى صحوت، هرولت إلى دورة المياه المشتركة لأفرغ ما تجمع فى مثانتى من بول خلال ساعات نوم الليل، أحسست أننى صرت خفيفًا، كريشة، أعود إلى حجرتى التى ملئت جدرانها الرطبة، ومراين سقفها الخشبية المتآكلة.. تتقافز عيناى بين أرجائها باحثة عن براد الشاى الذى سوده السناج .. ألمحه منزويًا فى أحد أركانها فأقفز إليه فرحًا .. أملؤه لمنتصفه ماءً .. أضعه فوق موقد الغاز الذى يصدر وشيشًا هادئًا، ليزيح الصمت الجاثم فوق صدر الغرفة ، أعود ثانية إلى دورة المياه قبل أن يستيقظ سكان الغرف المتراصة، أخلع ثيابى وأروح أشاهد عريى قبل أن تغمرنى مياه الدش البارد.

قبل أن ينتزعونى من قريتى صغيرًا ويلقوا بى فى أتون المدينة المزدحمة لأمتهن عملاً أتقوت من أجره وأخواتى البنات، بعد أن رحل أبى مبكرًا من عالمنا ، كنت أجرى إلى الترعة، وعند حافتها أحتمي بساق نخلتنا العجوز.. أسند إليها مخلة كتبى، ثم أخلع

ملابسى كلها لأصير بلبوصًا أظل واقفًا زمنًا أتحسس جسدى قبل أن ألقى بنفسى إلى المياه..

يا ااه.. أيام .. ما زالت رغبتى عارمة فى الخروج هكذا إلى حجرتى، وقطرات الماء تتسال من جسدى.

لا لأ .. عيب.

عيب وحرام وما يصحش وكلام الناس ، لغاية ما زرعتوا جوانا الخوف والجبن.. حتى عدوى، قاتل أخى وهادم بيته ، يجىء إلى أرضى، ويسير فوقها مختالا ولا أستطيع أن أقول له : عد من حيث أتيت.

ولما أحتج غاضبًا يقولون لخوفنا عليك.

انهمرت المياه الباردة فوق رأسي .. كتفى .. جسدى .. دغدغت حواسى.

ياللا ياللى جوه، عاوزين نروح أشغالنا .

أيوه حالا أهه.

ارتديت ملابسى على بلل جسدى، هرولت إلى حجرتى.. انتبهت إلى وقوقة الماء فوق النار.. لقَمته بحبات الشاى فتلون بالسواد .. بين كفىَّ احتويت الكوب.. إلى الشرفة المطلة على الحارة التى تخلصت لتوها من رقدة الليل مشيت .. يافتاح يا عليم .. متى تستيقظ هذه الداهية .. بل متى تنام..؟ شق صوتها فضاء الصمت

الليلى وخرق طبلتى أذنى : اعدلى رأسك يا مقصوفة الرقبة وبطلى تشخرى زى الجاموسة.

طوال النهار تشخط وتنطر فى البنت الغلبانة زوجة ابنها الغائب أبدًا فى عمله، والبنت مقطوعة من شجرة.. (مسكينة يا فردوس، يا أجمل من رأت عيناى .. تعالى إلى دفء حضنى لتعيشى فردوسك الذى لم تعيشيه أبدًا ..)

يا بت عاوزة اتفرج ع الفيلم ، مش قادرة أسمع حاجة من شخيرك.

عباس العتر جارى فى نفس الدور يعمل فى محل وسط البلد ، يبدأ عمله فى التاسعة صباحًا، لكنه يضطر أن يغادر حجرته قبل أن تشرق الشمس حتى لا تزنقه العجوز الداهية بسؤاله عن إيجار حجرته.. نزل الدرج دون أن تلامسه قدماه، أطل بطرف عينه من حرف الباب على الحارة، رآها تفترش الأرض قُبالته، قبل أن يرتد راجعًا مسكه صوتها من تلابيبه .. إيه اللى رجعك يا عباس يا عتر .. عاوز ترجع ليه.. صاحب الشغل ماقبضكش .. طب وماله يا أخويا، ولا يهمك، آهو كل تأخير بفوايده .

دس الرجل عينيه بين دفتى حذائيه وهرول مجتازا الحارة، والسؤال يترى فى رأسه : كل يوم بفوايده .. يعنى إيه .. يخرب بيتك .. هيه بطنك بتساع كل حاجة، حتى الربا..؟

شيعته عيناها حتى ابتلعته الدروب، ثم أفلتت دجاجاتها من وراء قضبان قفصها الجريد، فتبعثرت فى أرجاء الحارة، لتلتقط ما تلقاه من خشاشها، وعيناها على عنزاتها التى تملأ مأمأتها فضاء الحارة وهى تلتهم أعواد البرسيم التى يلقيها إليها بائعة صباح كل يوم إتقاء لشر صاحبتها التى «تنبط» فى مكانها أمام بيتها من طلوع الفجر حتى مجىء الليل . ينظرها بغيظ فيتمتم بكلمات تخرج بالكاد من بين أسنانه : صباح الفل يا أجدع خاله.. نهارك قشطة (زفت) إن شاء الله.

تسلط عليه شرر عينيها وهى ترده قائلة : نهارك زى وشك يابن أمك .. بقى مالقتش غير الحزمه المسلوله دى يا واد..؟ طب امش انجر وارجع من مطرح ما جيت، وإياك تعتب الحاره تانى.

(أعوذ بالله منك ومن أمثالك يا بنت الكلب، ومن اليوم اللى جيتى فيه الحاره يا أكاله السُحت)

بتبرطم بتقول إيه يا واد..؟

قال وهو يسحب علوا من أكوام البرسيم المحطوطة على عربته ويضعه بين يديها: يا سلام .. دا أنت تأمرى يعنى جيتى ف جمل .. لو طلبتى العربية كلها أديها لك.

(آه يا بنت الكلب، طب والله والله لهارى بدنك، كله بالقمشة، وما أخلى فيه حته إلا وأكون سلخه ، عشان تبقى عبره لغيرك)

- طب ما كان م الأول يابن أمك.

نظرها بجانب عينيه وهو يجر حصانه زاعقا فيه : حاا الكيل طفح منك ومن أعمالك السوده، والله لو ما تعدلت لا خلص منك النهارده قبل بكره.

منعم العربجى يري ويسمع ما يحدث من العجوز ، فيحس بالغيظ يهرى كَبِده، فيروح يحدث نفسه.. بقى دا يرضى ربنا..؟

ما فيش حد يرفض اللى بتعمله .. ماحدش يوريها العين الحمرا.. إيه الجبن ده .. طب والله لو حد رفض أو احتج عليها يلاقينا معاه.. لكن كله يخنس كده ويبقى جبله .. مش معقول ، ثم زعق على بائع البرسيم وأمره أن يلقى علوين أمام حصانه ويضع ثمانية فوق عربته، ونقده جنيها، وهو يقول بصوت تعمد أن يخرق أذن العجوز .. نهارك أبيض .. ربنا يغنيها بالحلال ويبعدنا عن الحرام..

راح بائع البرسيم يقبل الجنية مرة ويلامسه جبينه مرة، ثم دسه فى جيبه ، وهو يقول لمنعم : ربنا يبارك لك فى قرشك يا معلم ، وتبادلا النظرا ت لثوان، ثم أومأ بائع البرسيم برأسه وهو يقول : بكره إن شاء الله .. حيحصل.

تصحو الحارة على أصوات الباعة الذين يهلون عليها تباعا.

حليب يا قشطاااه.. اللباااان.

اللووووز.

بنار الفرن يا بطاطه .. المعسلة قوى يابطاطه.

أوقفه صوتها البتار : جرى ايه يا واد يا بتاع البطاطا.. يعنى ماشى كده وواخد ف وشك.. هى حارة أبوك..؟

انتقى واحدة من فوق فرنه الذى سوده الدخان، وشقها بسكينه فانفلت منها الدخان إلى الفضاء.

اتفضلى يا ستى ، والله ما يغلى عليكى.

وورق اللوبيا .. وراور يا فجل.

حمص الشام .. السخن .. الحمام.

العيش الطازة.

تشفط بق من ماء الحمص، وتقضم لقمة من الرغيف ، وعينا الولد بائع الخبز منصبتان عليها ، ولسانه يصب غضبه : بالسم الهارى.

بينما تكون «أم حليتى» فى هذا الوقت على باب الحارة منكفئة على قالبين من الطوب، تثبتهما تحت طاولة خشبية قديمة، لترص فوقها بضاعتها الرخيصة.. برتقال معطوب وقراطيس لب وفول سودانى وملبس وفنضام وعسلية ونداغة، ثم تتقرفص وراء فرشتها.. ثروتها كلها، لتحط وليدها على حجرها ، ثم تدس يدها فى فتحة جلبابها لتخرجها قابضة على جلدة مقددة تلقمها طفلها ليمتص الهواء.

هو تاسع بطن لها .. سبقه ثمانية إلى القبر .. الأول مات بالجفاف والثانى بنزلة شعبية والثالث بالحصبة والرابع بنزلة

معوية والباقى من الجوع ، والمسكينة صابرة على أمل أن يجئ يوم تتعدل فيه الأحوال ويعيش لها أحدهم تتوكأ عليه إذا ما أعجزتها السنون.

وأم فتحى الزوجة الشابة الساكنة فى الغرفة الأرضية فى البيت الملاصق تخرج كل صباح لتدلق ماء استحمامها وزوجها، وقد غطت شعرها الذى تتساقط منه قطرات الماء بفوطة حمام، وخداها متوردان وشفتاها حمراوان، وأغنية مرحة تتسرب من بينهما.. كايده العزال أنا من يومى .. إيوه آه، وجسدها اللدن تبين أجزاؤه من وراء قميصها الشفيف.. تنظرها أم وليد - ذات السمرة الداكنة والمتزوجة من شاب سافر منذ سنوات لبلاد النفط ولم يعد - بحسرة ثم تقول لها ضاحكة : ماتسلفينى يا ختى جوزك ليله..؟

تصادف مرور أبو العلا العجلاتى وقد تدثر بعفريته مزيته، ليقول : طب ما احنا آهو يا بشر.

تنفلت أم فتحى من باب البيت الضيق داخله، تمصمص أم وليد شفتيها قائلة : جتك وكسه وأنت مقطوع النفس.

فى صباح اليوم التالى هل بائع البرسيم على الحارة فى الوقت الذى كان منعم يعلق عريش عربته على جانبى الحصان، نظرا لبعضهما .. أومأ برأسيهما ، اقترب بائع البرسيم بعربته من العجوز .. لم يعرها التفاتا، أطلقت عليه لسانها.. جرى إيه يا روح أمك.. ماشى فى وسيه أبوك..؟ سحب علو برسيم بشماله ، بينما

كانت يمناه تقبض على «قمشته» قال وهو يتقدم نحوها وقد خلع ابتسامة عريضة على شفتيه : دايما ظالمانى كده..؟

ما أن همت لأخذها حتى انهال عليها ضربا بقمشته .. سوط وجهها وذراعيها وجسدها ورجليها ..

انطرحت أرضا ، تكورت تدحرجت وهى تصرخ .. آه.. آآى وهى .. تغطى وجهها بكفيها لتصد عنه لسعات القمشة ..

سمعت فردوس صراخها فجرت نحوها.. رأتها تدحرج فوق ترابها، اختطفت قمشة منعم، وبكل الغل المكبوت فيها راحت تسوطها .. خدى يا بنت الكلب.. سنين طويلة وانت ذلانى .. سقيانى المر وأنا صابره وأقول بكره ترجع . لكنك جبله.

آآى .. ف عرضكم .. حرمت .. حرام عليكم.

تدافع ناس الحارة نحوهم .. التفوا حولهم والفرحة تطل من أعينهم، وهم يهتفون فرحًا .. اضرب . . بنت الكلب .. المفترية .. الظالمة .. أكالة السُحت .

آآى .. آآى .. حرام .. دا أنا قد أمكم ..

ركلها أحدهم قائلاً : لازم تسيبى الحارة .. ياللا .. دلوقت حالاً.

قال منعم مغتاظا : وكنتم فين من زمان..؟

قال بائع البرسيم : الجبن يا منعم .. الجبن مانعهم .. كل واحد مستنى لما غيره ياخد له بتاره.

جرت فردوس إلى الداخل وجاءت بصرة ملابسها .. ألقتها إليها قائلة : وآدى هدومك.

صرخت مستجدية : طيب خلونى لبكره.

قالوا وهم يحملونها ويضعونها فوق إحدى العربات .. وصلها يا اسطى.

راحت تستصرخهم : حرام عليكم .. أروح فين..؟ حتى ضاع صوتها عند أول منعطف ابتلع العربة.

لأنهـا امـرأة

لأنهـا امـرأة

كل يوم كان يجيئوها فى نفس الميعاد، كل يوم كل يوم فى نفس الميعاد، حتى أنها باتت تحدد لحظة ضغطة إصبعه على زر جرس الباب، فتتهيأ لاستقابله.

منذ أن مات زوجها وزوجت وحيدتها وهى تعيش وحدها، لكن أبدا لم يتركها تعيش هذا الإحساس، أبدًا لم يتركها وحدها، حتى وهما طفلان .. صبيان يافعان.. كانا دائما معًا.. يلعبان.. فى طريقهما إلى المدرسة يترافقان، حتى فى الحافلة ، فى المدرسة المشتركة.

لما كبرت ونما عودها، وجاءها خراط البنات لزمت الدار.. لما لزمت الدار جاءها الخُطاب .. شباب ورجال وكهول، من بينهم اختارت فارسها.. وجهه حلو كفلق القمر .. يجىء وحده وينصرف وحده، إلى أن كان يوم، جاء معه أناس كثيرون.. جلستِ معه بينهم بفستانها الأبيض، وتاج رأسها الأبيض، وقفازها الأبيض، وحذائها

الأبيض، أفتقدته بين الناس، فأرسلت عينيها إلى كل ركن تبحث عنه، فى آخر الليل رآها من مخبئه تتأبط ذراعه وتذهب بعيدا..

توسد حزنه .. أغمض عينيه. استجدى النوم .. تأبى عليه.. تذكرته وهى ممددة إلى جواره ، أحست بالوحشة وكأنه فارقها منذ سنوات بعيدة.

فى الصباح الباكر كان يرن جرس شقتها .. كل يوم كان يذهب إليها .. يستعوض غيابها.

تجرى إلى الهاتف تسأل عنه لو غاب عنها.

ظلوا هكذا حتى بعد أن كلل المشيب رأسيهما، وأحنى العمر ظهريهما.

وذات يوم قالوا لها : أخوكى عيان .. راقد .. مش قادر يقوم .

فى اليوم التالى رن جرس الهاتف قبل أن تصحو العصافير.. سقط قلبها هلعًا، فزعة اختطفت السماعة.. البقية فى حياتك.

شقت صرختها صدر سكون الفجر.. ضربت صدرها ولطمت خديها وهى تخطو نحو الباب، ارتدت عائدة قبل أن تجتازه إلى الدرج.. وقفت أمام المرآة .. سوت خصلات شعرها المنفلتة من طرحتها.. رفت ابتسامة على شفتيها لما تأكدت من ملاءمة «مكياچها» مع ملابسها السوداء.

ثنائية الفرح والبكاء

ثنائية الفرح والبكاء

كانت ممددة على ظهرها، غارقة فى عرقها، بينما كانت أصابعها تكلبش فى أعمدة السرير... آلام الطلق تنهش بطنها فتتلوى .. تصرخ.

أحست أمها بقلبها يأكلها.. توجهت للخالق بالدعاء .

آآآه.. صرخت البنت ثانية ورفست بساقيها.

قالت لها : احزقى.

جست بطنها ثم جرت إلى الخارج وجاءت بطشت ماء ساخن.. جلست بين فخذيها .. أطل رأسه الصغير.. بيد مدربة سحبته.. خرج من مكمنه المظلم الضيق إلى الدنيا الواسعة.. استقبلها صارخًا، باكيًا، كان الصوت طريًا طازجًا، لفته جدته بقطع القماش البيضاء المطرزة التى أعدتها لهذه المناسبة وأطلقت زغرودة طويلة لعوب، التحمت بها زغاريد الجارات.. ملأت سماء الحارة، جئن ليشاركن أمه فرحتها.. التففن حولها.

ـ حمد الله على سلامتك.

ـ مبروك يا حبيبتى.

ـ اللهم صلى ع . النبى .. قمر.

قالتها إحداهن وهى تأخذه بين يديها .. اتسعت حدقات أعينهن وهن يتطلعن إلى وجهه.. أكبرن جماله .. قلن :

ـ اللا اااه.. يا جماله ..!!

ـ أصول يسموه يوسف.

وتضاحكن .

قالت إحداهن تخاطبه : أكبر قوام عشان أجوزك بنتى، مش حنكلفك كتير .. هاه .. إيه رأيك؟

أخذه أبوه بين ذراعيه .. ضمه إلى صدره .. مست شفتاه خده الطرى.

قال : اتفقت مع أمه نسميه خالد.

قلن : عاشت الأسامى وعاش صاحبه.

وأطلقن زغاريد طويلة ، ورشفن أكواب الشربات.

* * *

فى اليوم السابع امتلأت الدار بالصبية والنساء، جئن بغربال واسع العيون، غطوه بقماشة بيضاء.. أرقدوه فوقها على ظهره.. هزته واحدة بين كفيها ، دقت أخرى هونًا فارغًا، أصدر رنينًا حادًا ..

سرسع الصبية : سموا المولود.

ردت البنـــات : سعد الله

قال الصبيـــة : وعيونه السود

رددت البنـــات : سعد الله

وبعد أن هدءوا قالت العجوز التى كانت تدق الهون : اسمع كلام أمك، واسمع كلام أبوك.

رفس الهواء بساقيه الصغيرتين، وصرخ باكيا .. ضحك أبوه قائلاً: خلتيه يحتج من دلوقت.

وزعت أمه على الحاضرين علب الفول السودانى والحمص والملبس وحبات فول منداه، معقودة فى خيط أبيض رفيع، وفى المساء أصرت أن تعقد لوليدها خرزة زرقاء فى مقدمة شعره، استقرت فوق جبهته، قالت وهى تنظر فى عينيه : عشان تحوش عنك عيون النسوان المدوره، وكل اللى يبصلك وما يصليش ع. النبى.

* * *

تنبه الجيران على صراخ ملتاع .. يوووه

ضربت خديها بكفيها.. شقتهما أنهار الدموع.. تمور الآلام بداخلها .. يغلى صدرها ، ينطلق الغليان صراخًا ممورا .. يا حبيبى يا ضنايا .. تفزعت النسوة فى الدور المجاورة.. تطيرن .. استعذن بالله من الشيطان الرجيم.. تسربلن بالسواد وجرين بعد أن عرفن الخبر..

خالد مات ..

مزق الخبر صدورهن .. قالت واحد ياعين أمك يا ضنايا ، بينما كان أبوه ينهنه وهو يرنو إلى وجهه ليملأ عينيه من براءته.. التقطت عيناه بسمة حلوة نائمة فوق شفتيه، فأسرع يمسح دموعا انحدرت على خديه.. تراءت له صورته يوم مولده، بكاءه، صراخه ، ساقيه الصغيرتين وهما ترفسان الهواء.

هز رأسه فى أسى، حمله بين ذراعيه ، ولولت أمه وهو يخطو به خارجًا.

قالوا لها : اصبرى.

- ربنا يعوض عليكى.

- شفيعك يوم القيامة.

كان الجو رطبًا، وثار الهواء سخيا فى غير عنف .. نتف السحب البيضاء تسبح على صفحة السماء .. تساقطت قطرات ماء رائقة فبللت أوراق الشجر، صارت زاهية، اغتسل أسفلت الطريق، صار أسود لامعًا.. همد الغبار الناعم فلم يثر لما داسته الأقدام .. تراءت له من البعيد شواهد القبور الجهمة.. ضم الجسد الطرى إلى صدره وغمر القماشة البيضاء التى تغطى الجسد الغض بقبلاته.

قبل أن يسلمه للذراعين الممدودين له من باطن القبر.

مأمورية

مـــأموريـــة

١- سفـــر

- شهيق هواء نقى مدفوع الثمن

عبر الهاتف جاءنى صوته آمرًا باترًا : تعال حالاً.

ضغطت على بعض مفاتيح لوحة التشغيل فانمحت الأرقام التى كـانت تملأ شـاشـة الحـاسب أمـامى.. قـمت من فـورى والتـقطت الجاكتة من المشجب. وتحسست أصابعى تلقائيًا رباط العنق للتأكد من سلامة وضعها بين حدى ياقة القميص.. التقطتنى أعين السعاة المرصوصين أمـام مكتبـه. فـهبوا واقـفين، بينمـا أسـرع أحـدهم إلى البـاب يفـتحـه.. التـقطت عـيناى عـلامـات الاسـتـفـهـام المطلة من أعينهم.

يا سـاتر يارب.. مـاذا حدث حتى يتم استـدعـاؤه فى هذا الوقت المبكر...!؟ نقلت خطواتى مرتابًا حتى وجدتنى أمامه.

- صباح الخير يا أفندم .

ضغط على زر «الديكتافون» وقال آمرًا: هات المذكرة والتذكرة وتعال حالاً:

الوجه متجهم وطرفا حاجبيه العريضين معقودان والكلمات قليلة قاطعة: «تخرج من هنا على المحطة من غير ما حد يعرف.. أجرد الخزينة وافحص الشيكات وراجعها مع كشوف البنك وبلغنى النتيجة بالتليفون».

(المهمة بسيطة يمكن أن يقوم بها رئيس الحسابات، أو أى مراجع . لكنه اختارنى ليظل الأمر محصورًا بيننا، حتى لا تتزعزع صورته لدى الوزير إذا ما تناثر الخبر ووصل إلى أذنيه.

جرت عيناى فوق الأحرف الدقيقة المطبوعة بعناية على التذكرة.. قطار .. عربة ٧، مقعد ٣٢ ، قيام ٩ ص ، رصيف ٤ .

قال قبل أن أنفلت خارجًا : سيارتى فى انتظارك.

كان القطار واقفًا على الرصيف ... ها هى العربة ٧ بالدرجة الأولى .. تسبقنى عيناى .. تلتقطان الأرقام المثبتة على حافة أرفف الحقائب .. ها هو المقعد ٣٢ فى صف المقاعد الفردية .. أنزعج من المقاعد المشتركة، فحمدًا لله.

هواء المكيف محا ضيقًا متراكمًا فى الصدر من زمتة الحر والرطوبة العالية. لون السجاد الأحمر المؤطر بالخطوط البيضاء يخلع رونقًا على العربة الأنيقة .. انساب صوت المذيعة الرقيق من السماعات الصغيرة، غير المرئية إلى أذنى معلنًا عن قيام القطار مباشرة إلى الإسكندرية.

لكن ماذا حدث هناك ، وكيف عرف الرئيس..؟

هل تقاعست إدارة الحسابات فى الجرد الدورى والمفاجئ..؟ لا أعتقد فالتقارير تصلنى منتظمة.. إذًا ماذا حدث..؟!! لابد أنه شىء خطير.. اختلاس أو تزوير فى شيكات .. لكن هل يُعقل أن يختلس الرجل بعد هذه السنوات من خدمته..؟

المهم أن أبدأ بالتحفظ على أساتذة الصندوق والبنك، ثم جرد الخزينة)

صباح الخير يا أفندم.

أخذنى من عالمى صوته المهذب.. شاب وسيم، محبوكة ملابسه على عوده الممتلئ فى غير إسراف، «والبابيون» الأسود المشدود على رقبته والمثبت بين حدى ياقة قميصة الأبيض خلع عليه رونقًا وبهاء، لكن ريحه ثقيل وأدبه المفتعل زاده سماجة.. يدفع أمامه «ترولى» تزاحم سطحه بزجاجات المياه الغازية ومعلبات العصائر، وأطباق البلاستيك البيضاء تحوى شطائر فى حجم الإصبع مغلفة بأوراق السلوفان تغطى الأرفف السفلى.

- اتفضل ...

ناولنى إحداها وسألنى عن نوع الشراب الذى أفضله .

قلت : قهوة ع الريحة .. وياريت تشوف لى الأهرام.

قال : حالاً يا فندم.

(لكن إذا لم أكمل المأمورية اليوم فهل سأبيت هناك؟ لا لا .. الموضوع بسيط وإن شاء الله انتهى منه اليوم).

الساعة الحادية عشرة .. القطار يتهادى قبل أن يقف على المحطة انفلت خارجًا إلى الميدان المزدحم.. أشرت إلى سيارة أجرة.

اتجهت للتو إلى مكتب المدير العام.

قلت آمرًا : سنستمر فى العمل حتى ننتهى من الجرد.

اتسعت حدقتا عينيه دهشاً، قال متسائلاً : سعادتك بنفسك .. طيب ليه ..؟

قلت لو سمحت استدع رئيس الحسابات . جاء مصطحبًا أحد المحاسبين.. أمرته بإحضار دفاتر أستاذى الصندوق والبنك وكشف حساب البنك الأخيرين. كان الأمر باتًا ، باترًا، فلم يتساءلا عن السبب.. فى العاشرة والنصف كنا قد انتهينا من كتابة المحضر بعد أن أبلغت الرئيس هاتفيًا بالنتيجة .. أحسوا بنيتى للسفر، فقالوا : الاستراحة جاهزة يا أفندم، والسفر فى الصبح أفضل ، وإن شاء الله نحجز لك فى نفس القطر اللى سعادتك جيت فيه.

قلت: أنا مش مهيأ نفسى للبيات.

ـ مش حتلاقى قطر مناسب دلوقت ، والسفر بالبيجو خطر بالليل.

ـ أى قطر أو حتى «السوبر جيت».. وصلونى المحطة وأنا أتصرف.

- اتجهت مباشرة إلى منافذ حجز التذاكر أمسكت بذيل الطابور.. نصف ساعة ضاعت فى الانتظار ، أخيرًا وصلت للشباك.

- أولى القاهرة من فضلك .

- ما فيش النهاردة .. آخر قطر الساعة اتناشر كله محجوز.

- (والعمل..؟)

- ممكن بكره :

موقف «السوبر جيت» خلف المحطة .. جريت تجاهه.. صدمتنى منافذ بيع التذاكر المغلقة، قالوا لى: آخر عربة قامت عشرة ونصف ... (أركب أى قطر.. ثانية، ثالثة .. أرجع الاستراحة واكلم الأولاد بالتليفون ... لا ... لا ... لا يمكن).

وجدتنى فى قلب محطة السكة الحديد.. أكوام من البشر أمام الشبابيك. ليست هناك طوابير.. وبعد.. كيف يمكننى النفاذ من بين هذه الأجساد المتلاحمة..؟

التقطت عيناه حيرتى، فاقترب منى متسائلاً على فين يا افندى..؟

- القاهرة.

- ولا يهمك .

- ناولته الورقة المالية المطوية فى يمينى وفى قلبى ريب قائلاً:

- ثانية من فضلك .

ـ ثانية زى ثالثة فى القطر ده.

ـ معلهش .

ـ براحتك .

اندس بينهم ... لم يبن ... غاب طويلاً ، فلعب فى عبى الفأر عوضك على الله .. الظاهر ما فيــ...)

وجدته أمامى، مادًا يده بالتذكرة.. اتفضل يا بيه .

نظرته فهالنى ما أصبح عليه حاله .. العرق يغطى وجهه وشعره صار مهوشًا وتكرمش قميصه.

دس التذكرة فى يدى قائلاً كلها عشر دقائق والقطر يقوم .. مع السلامة.

ـ طيب خد .. تعال

ـ أردت أن أجزيه أجر ما فعل معى، لكنه كان فص ملح وداب.. فرجعت إلى نفسى وأنا أردد: الحمد لله لسه الدنيا بخير.

٢- عـــودة

ـ آخر زفرة من صدر ضاق هوانا

كل العربات مكدسة وأبوابها مسدودة بأجساد ركابها .. أطلق القطار صفيرًا كصراخ مريض مأزوم، فدسست قدمى بين الأقدام.. خفت من السقوط تحت العجلات فانحشرت بين الأجساد المتلاحمة الواقفة بين المقاعد، تشبثت أصابعى بظهر أحد المقاعد.

الحر شديد والرطوبة عالية تزهق الأرواح، والغبار الذى أثاره القطار ينفذ من النوافذ المكسورة ليهاجمنا بضراوة، أختنق، والعرق يبلل جسدى، فتلتصق به ملابسى الداخلية.. أنفخ ضيقًا ومللاً، وأود لو أصرخ لأخلص نفسى منهما، لكن هيهات، فأين لى هذا وسط هذا الحشد.. بطيئًا بطيئًا تحرك القطار.. يتصاعد لغط الركاب، نداءات الباعة، بكاء طفل، خلية نحل تزن، طنين آلاف الذباب. لكن من أين جاء كل هؤلاء الباعة؟

البيه منين..؟

أخرجنى من شرودى، نظرته فرأيت عينيه الجاحظتين مصوبتين نحوى.. ملتصقتين بوجهى. (والله أنا ما طايق نفسى دلوقت، ولو حد لمس مناخيرى حانفجر .. أنا يا سيدى من جهنم الحمرا .. ينفع..؟)

عيناه مازالتا متشبستين بشفتى، قلت لأتخلص من مطاردتهما: من جهنم قال مبتسمًا: أحسن ناس.

- نعم .

- أصل حضرتك مش وش بهدلة، إيه اللى ركبك القطر ده..؟

- مرغم ... مضطر.

- أنا نازل كفر الدوار.

استماتت أصابعى بمسند مقعده وشعور بالخجل يعترينى، ولم أهتد لطريقة أعتذر بها له، فلذت إلى الصمت.

شباشب جلد طبيعى..

إلهى يخليكوا وترجعوا لولادكم بالسلامة تساعدونى عشان أربى الأيتام. دفعنى شحط وهو يلقى بأكياس اللب على حجور الجالسين، وهو يجعر : اللب واتسلى، ما كدت ألتفت تجاهه حتى اصطدمت جبهتى بمؤخرة جردل مملوء بزجاجات مياه غازية، يحمله شحط آخر : بل ريقك .. حاجة ساقعة يا عطشان.

تحسست جبهتى .. فزعت من كمية الدم التى غطت أصابعى.

- عورت الراجل يابهيم.

- يعنى كان لازم يقف فى سكتى.

- ما حدش معاه شوية بن..؟

- أربط الجرح قوام .

- تعالى يا أستاذ أقعد مطرحى..

أحسست بدوار .. المقعد خشن .. آلم إليتى ، والغبار المثار مازال يهاجمنى، وعجلات القطار تهرس رأسى.

- اتفضل سيجارة .

نظرته مليئًا قبل أن أرده شاكرًا : ما بدخنش.

قال فى ود : خير ما فعلت.

سأله جاره : معاك كبريت..؟

أجاب : معايا

قال : طب ولع

إلهى ما يرميكوا فى ضيقة تساعدونى.

شاى شاى شاى سخن.

حمص وحب العزيز ... شى الله يا بدوى، حمص واتسلى.

دخان اللفائف الأزرق يحوم فوقى.. يلتف حول رقبتى .. يندس إلى أنفى، حلقى .. أسعل أسعل. ما قولنا لك خد لك واحده تعمر بيها الطاسة وأنت تروق.

أنظره شذرا فيبادر بالاعتذار.

ريقى ناشف.. حطب أحسه ينكسر.. شوية مية يا ناس .. لكن فين؟! انطفأت مصابيح العربة الكابية.. عمت الظلمة.. دهمت الأعين فلم يعد للمرائى وجود.. أحسست بأصابع تعبث فى جيبى، أسرعت إليه أصابعى لتمسك بها فلم تجد حافظة نقودى.. صحت زاعقًا: حرامى.. محفظتى .. انبرى أحد الركاب قائلاً: يعنى مش كفاية البهدلة وسيحان الدم، كمان تسرقوه. رجوت السارق الذى لم أتبينه بأن يأخذ النقود ويرمى المحفظة أرضاً.

قال قائل : عوضك على الله.

قال آخر : عاوز فلوس عشان تروح يا أفندى..؟

أسند رأسى بكفى.. معقول .. الواحد يتعرض لكل المهانة دى، وكمان للسرقة فى بلد نص ميزانيتها بينصرف على الأمن، وبعد كده بيسألونا : فين الانتماء..؟ أى انتماء بعد ما يتعرض الإنسان لكل ده..؟

نظرت فى مرآة دورة مياه المحطة فأنكرت وجهى، شعرى المهوش، رموشى التى كساها التراب.. بقع الدم المتناثرة فوق ملابسى.. سرت منكمشًا على نفسى، لمحت سيارة أجرة.. أشرت للسائق، مسحتنى عيناه، قال ساخرًا وهو يشير نحو الموقف : محطة الأتوبيسات هناك أهيه.

وأطلق ضحكة عالية.

أتفوه ، كلاب أولاد كلاب.

- لو سمحت .. إنت .

- الصوت يأتينى من خلفى.. يقتحم أذنى تلفت.. نظرته مرتابًا.. سألت : أنا..؟

- قال بصفاقة : أمال أمى..؟

- نعم ..؟

- بطاقتك .

- ليه ....؟

أنت حتخش لى قافيه..؟

بأسأل حضرتك ليه..؟

- شكلك وحش، مش ولابد، مش عاجبنى.

- دا أنا المدير المالى لشركة الـ

- قلب شفته السفلى فى قرف، وقال وسبابته مصوبة نحوى.. أنت؟؟

- ثم كركع ضاحكًا .. هاهاها..

- يا أخى الشكل مش كل شىء.

- بطاقتك ..؟

أتسرقت فى القطر.

قبضت يده على ذراعى.. ضغط عليه بشدة، وهو يدفعنى أمامه، حتى وصلنا إلى طريق جانبى، تقف على ناصيته سيارة شرطة بصندوق كبير.

- أطلع .

ودفعنى لأرتقى سلمًا خشبيًا لأجدنى حبيس هذا الصندوق.. مذعورًا رحت اتلفت حولى.. لم أر إلا وجوهًا ممروة وأعينًا مذعورة وأجسادًا ممصوصة، ثم تحركت بنا السيارة تجوب شوارع العاصمة.. وتتوقف بين الحين والحين لتستقبل أعدادًا أخرى، يتكدس الصندوق.. صارت الحركة داخله مستحيلة.. تكومت الظلمة وانتشرت رائحة خانقة، وانتشر السعال، أشرئب بعنقى نحو الطاقات المسيجة بالشباك الحديدية، علّنى أتنسم هواء متسربًا منها أو بصيصًا من نور يطمئننى على حاسة بصرى لكن دون جدوى، أحسست بأختناق .. بدوار فى رأسى.. بخوار .. أسقط .. أتدحرج أكوم جسدى بين ذراعى كى لا تدوسنى الأقدام.. كى .. لا ... أن .. د .. ق.

والولاد..!

والــــولاد؟!

سنوات طويلة وأنا بعيـد عن البلدة.. استبـد بى الشـوق إلى ناسها، ودروبها ودورها، فوجدتنى أسافر إليها.. استحث القطار المتكاسل أن يسـرع لأسبر غـور لهفـتى.. لم أكد أضع قدمىّ على رصيف المحطة حتى وجدته أمامى، متقرفصًا وراء بضاعته الرخيصة.. الوجه أصفر هضيم، والعينان ندبتان فى الوجه الممرور.. أعود للماضى البعيد.. أغوص فى تلافيف رأسى باحثًا عنه.. من هو..؟ أخيرًا عثرت عليه كامنًا فى ركن بعيد فيها .. عمار .. رفيق الدراسة فى المدرسة الابتدائية .. يا اااه.. ماذا أصابه .. كان أذكانا فى التحصيل، وأحرفنا فى لعب الكرة.. لماذا صار هكذا .. مجرد هيكل آدمى..؟!

- إيه يا أفندى .. بتبحلق لى كده..؟

- باشبه .

- فىَّ أنا ..؟ لا .. ما أظنش تعرفنى.

- إنت عمّار .. مش كده ..؟

- أيوه .

- مش فاكرنى يا عمار..؟

نظرنى مليـاً ، ثم هـب واقـفًـا وأخـذنى إلى حـضنه وهـو يهـتف فرحًا: عبد الباقى .. اخص عليك.. كل المدة دى تغيبها عننا..؟

- وأنت ماكملتش دراسة ليه يا عمار..؟

أجاب فى أسى : أصل أبويا مات.

- لكن إيه اللى عمل فيك كده .. إنت خاسس قوى يا عمار.. إنت عيان..؟

- آه .. عيان قوى.

- طيب ما تتعالج .

- أووه.

ثم دس يده فى جـيبـه وأخـرجـهـا تقـبض على ورقـة مـتـآكلة الأطراف ، مـدهـا نحـوى قـائلاً: الدكـتـور قـال لى أنا كـاتب لك كل حاجة هنا فى الورقة دى. تقافزت عيناى فوق حروفها..

الاسم : عمار

فلاح أجير

الدخل الشهرى : غير مضمون .

المستوى الاجتماعى : تحت خط الفقر.

الحالة الاجتماعية : متزوج.

عدد الأولاد : كثيرون .

التشخيص : بالكشف الطبى على المريض وبنتائج التحاليل الطبية له اتضح أنه مصاب بالبلهارسيا والإنكلستوما وإنسداد فى الحالب وفشل فى الطحال وكسل في الأمعاء والتهاب فى المفاصل..

نظرته بعينين امتلأتا فزعًا ، وانفلت لسانى متسائلاً: وليه ما تدخلش مستشفى..؟

قال بصوت باك.. والعيال..؟

رمـــاد

رمـــــاد

كـان الجـو حـارًا .. رطبًـا .. أحـسـسـت بالاخـتناق .. أنظر من النافذة إلى أوراق الشجر فأجدها هامدة.. قلت لنفسى أنتظر حتى يهل علينا الليل بنسمة طرية تغسل زمتة النهار المميتة .. لم أستطع، فهربت من علب الأسمنت الملتهبة .. وجدتنى أسير نحو المقهى..

بدأ النهـار ينسـحب من أمـام العـتـمـة الزاحـفـة ببطء.. الأضـواء الكابيـة وسكون سطح الماء فى المجرى العتيق وهمود أوراق الشجـر شـحنتنى بحـزن شـفيف.. جاءنى النادل العـجـوز بكوب القـهـوة المرة والشيشة .. التقطتنى عيناه من بعيد فـأقبل متهلل الوجـه.. ضمنى إلى حضنه .. خبط على ظهرى بكفه.. أخذته إلى حضنى.. ردد ... رددت: أو حشتنى كثيرًا .

جاء النادل فرحًا لمرآة ، ناثرًا كلمات الترحيب به.. ناوله سيجارة من البلاد التى زارها .. رشـقها وراء أذنه اليمنى وهويضـحك قائلاً: لم نجل صدرنا من مدة طويلة يا أسـتاذ.. لم يكد يجلس حتى أشـار إلى جهـة الشـارع قـائلاً: أخـوك خليل.. نظرت إلى حـيث أشـار..

رددت البصر ثم سألته : مَنْ؟

نظرنى مستنكرًا ثم قال وهو يمد يده على آخرها : خليل إبراهيم .. صديقك الحميم .. ألا تراه ...؟!!

رحت أبحث عنه فى سراديب الأيام الفائته.

* * *

لم أكد أضع رأسى على الوسادة بعد أن تجرعت مرارة السهد لليلتين طويلتين من شدة الحمى، حتى وجدت نفسى فى أحضن النوم .. لم أكد أغرق إلى قراره حتى شعرت بيدها تهزنى وهى تردد قلقة : قُم .. قُم .. صحت غاضبًا : لم ..؟

قالت: خليل ينتظرك فى الصالون .

قلت منزعجًا : خليل ؟! فى هذا الوقت من الليل ؟!

ملأنى الخوف فجريت إليه متسائلاً : ألست بخير ؟

كانت الحيرة ترقد فى عينيه ..

قال ويداه تفركان بعضهما : مرضت أمى فجأة وليس معى نقود لعلاجها .

قلت : لحظة واحدة .. أرتدى ملابسى ونذهب معًا لعرضها على أحد الأخصائيين. اضطرب للحظة ثم قال : لا لا .. ليس الأمر خطيرًا إلى هذا الحد، فقط سآخذها إلى البلد وأعالجها هناك..

أعطيته ما كان معى.

يومان .. أربعة .. خمسة والقلق يمزقنى .. قبل أن أتخذ قرارا بالسفر إليه وجدته أمامى.. سألته متلهفًا عنها .. زر عينيه وصعّر خده ثم تمتم : بخير ، ومضى مبتعدًا .. شعرت بأننى أتقزم . وظللت مقيدًا فى مقعدى زمنًا لم أستطع الفكاك حتى اتخذت قرارًا.

* * *

ألح صوته على أذنى صائتًا بأسمى ، لما رآنى مقبلاً نحو المقهى..

لم أعره التفاتًا ... قام .. جرى إلى كرسى خال وأحضره .. نفض قاعدته .. لعب الفأر فى عبى..

- ماذا تشرب؟ .. سألنى

- لا شىء .

ألح .. لابد أن تشرب شيئًا.

نظرته بارتياب .. ضحك فجأة فبرزت أسنانه الصدئة ، ثم لاذ إلى الصمت ، غارسًا عينيه فى حجر البورى الذى يشد أنفاسه دومًا.

أردت أن أترك مساحة الصمت تفضل بيننا .. لم يتركها تتعملق.

قال : تصور ... أنا هنا منذ الأمس.

قال : منعنى صاحب البيت من دخول السكن ما لم أسدد متأخر الإيجار.

غلبنى ضعفى فدسست يدى فى جيبى.

* * *

عن آخر امتلأ السرادق .. عرفوا الخبر من الصحيفة فجاءوا للتو .. قبل أن ترحل عن عالمنا سألتنى : كيف حال أم صاحبك خليل؟

قالوا وهم يشدون على يدى : شد حيلك .. نعرف غلاوتها عندك.. لكن ما حيلتنا..؟

لم تغب عنى بسمتها التى كانت تفترش وجهها دومًا ، فتخلع عليه إشراقة حلوة أضاءت حياتى .. تطل علىّ فأسألها معاتبًا وعيناى تسحان الدمع :

أهكذا مبكرًا يا أمى..؟!

قالوا : وحد الله .

فرحت أكفكف دمعى..

افتقدته .. وسوس لى شيطانى بشر .. أكلنى قلبى عليه.

سألتهم : أين خليل..؟

أجابوا : كان معنا فى المقهى قبل أن نجىء.

بعد شهور عديدة قضيتها فى البلدة جئت .. كانوا يجلسون فى شبه دائرة ، يشدون أنفاس البوارى.. رأونى فهرعوا نحوى .. أخذونى إلى أحضانهم وهم يتغنون بعبارات الشوق إلا هو فقد ظل جالسًا مكانه تاركًا فمه مفتوحًا ليتسرب منه الدخان من فتحتى منخاره .. شعرت بالغثيان .

* * *

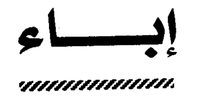
- ألا تراه ..؟ سألنى .. النادل.

خلصنى سؤاله من عتمة ذكرياته الأليمة .. قلت : هه ..؟ لا .. أبدًا .

قال متسائلاً فى إلحاح : كيف وهو على بعد خطوة منك؟!

خبطت كفا بكف وأنا أردد: العجيب أنك تتخيل شيئًا غير موجود إطلاقًا.

وأطلقت ضحكة أشبه بالبكاء ثم غادرت المكان ، بالرغم من إلحاحه علىّ بالبقاء.


إبـــاء

إبـــاء

آآآه .. إم م م ... آآآ ى ى.

إن أنينك يا أمى يوجعنى، يمزقنى ، يسحقنى .. فلو كان الأمر بيدي لفديتك بروحى، فماذا أفعل أمام عجزى..؟

أم م م .. يا فا همى.

نعم يا أمى .

أهرول إليها ملبيًا ، وعلى طرف لسانى دعاء لم ينطقه : ربنا يشفيك يا أمى.

آخذها إلى حضنى.. صارت هيكلاً .. كان الجسد ممتلئًا ، رجراجًا، والبشرة كانت وردية والبسمة لم تغب أبدًا عن شفتيها ، فكيف سلبها اللعين كل هذا ..؟ وأين ذهبت نضارتها وفتوتها؟!

شدى حيلك أمال عشان خاطرى يا أمى.

ترتخى أجفانها فوق عينيها ، أسند رأسها إلى الوسادة.

مات رجلها منذ سنوات صباى الأولى، لم يكن يملك غير كده، فتوسده ورحل.. قالت لى: كان عفيًا، متين البنية، ولأنه تمرد على المدرسة صغيرًا شب دون أن ينال قسطًا من التعليم، ولما نزل سوق العمل اعتمد على شبابه وفتوته، فعمل حمالاً فى الأسواق، وعتالاً فى الموانئ.. رفضه أبي لما تقدم بطلبى منه، لكنى أحببته لما أحسست بحبه.. أبداً لم يغضبنى .. كان يجيئنى آخر النهار بما يحس أنه يفرحنى، ويضع فى حجرى ما كان يكسبه من عمله .. ولما قرب ميعاد مجيئك جاءنى بالفراخ العتاقى والمغات، قال لى والفرحة تتقافز فى عينيه: لو جاء ولدًا سأسميه فهمى، على اسم أبى، وسأحقق فيه أمله، سأعلمه. . لن أبخل عليه بشىء لكنه مات فى عز شبابه، كان نائمًا وكعادتى صباح كل يوم انسللت من جانبه إلى المطبخ، وجئته بصينية الفطار وبراد الشاى.

أبو فهمى .. اصحى.

ستتأخر .. قم لتفطر .

لكنه لم يجبنى .. على غير عادته.

ياالهوى .. إيه يا أخويا..؟

قلبى وقع ، هززته .. لم يتحرك.. دوت صرختى فى فضاء الشقة.. جاء الجيران .

مات فى ساعات الليل الدامس، توقف القلب فجأة فانسلت الروح فى هدوء.. قال طبيب الصحة ذلك فى تقريره.

ميه يا فهمى .. اسقينى يا حبيبى.

بالأمس جئت بالطبيب .. انتقلت أصابعه بالقرص المعدنى البارد فوق صدرها وظهرها، ثم سود ورقة يعلوها اسمه بالدواء قال وهو يمدها نحوى: أعطها الأدوية بانتظام ..

جريت إلى المطبخ، جئتها بكوب الماء.. بللت شفتيها.. هنيئًا يا أمى .. شدى حيلك... إن شاء الله حتخفى وتبقى عال.

تمتت شفتاها وعيناها مرشوقتان فى سقف الحجرة : يارب.

ولما مات أبوك يا فهمى وجدتنى ملتزمة بأن أحقق أمله فيك.. لكن كيف وأنا لا أملك شيئًا ولا حتى دخلاً منتظمًا.. لم يكن أمامى غير خيار واحد.. العمل، واشتغلت، وهان علىَّ كل شىء وأنا أراك تذهب وتجىء من المدرسة وتكبر ولم تسعنى الدنيا لما دخلت الجامعة.

آآآه.. إم م م .

سألته وأنا أتناول الورقة من يده عن حالتها.

قال : الأمل فى الله .. المهم الانتظام فى مواعيد الأدوية.

(كيف أتصرف.. لمن أذهب..؟ محمد دهب.. على عوض الله .. أحمد هارون .. سعد حمزة .. عبد الفتاح يحيى..؟)

نعم .. عبد الفتاح أبو يحيى .. زميل الصبا .. ارتدى ملابسى على عجل.. أشفط ثمالة الشاى وأجرى نحو الدرج أقف أمام دارهم المواجه لدارنا وأزعق : عبد الفتاح.

يجتاز صوت أمه الجدر ليصب فى أذنى : ايوه يا فهمى ... أهو نازل يا خويا.

ذاكرنا معًا ولعبنا معًا ، واختلفنا كثيرًا، لكننا أبدًا لم نفترق ، حتى اجتزنا أعتاب الصبا، وظننت أننا سنظل هكذا إلى أن نتخرج من الجامعة إلا أننى فوجئت به ذات يوم يقول لى .

- تعرف يا فهمى لولا أبى لانقطعت عن المدرسة .

- ماذا ..؟

- لا تنزعج هكذا .. فإننى أذاكر - كما ترى - وأنجح أيضاً.

- لكن دون رغبتك .

- نعم .

- لم ..؟

- ما النتيجة فى النهاية .. شهادة ..؟ ما قيمتها..؟

- المسألة ليست راتبًا ، المهم إنك تتعلم وتتثقف ويكون لك كيان و ..

- ثم ماذا ..؟

- ثم ماذا ..؟!!

- تعلمت وتثقفت وعملت لك كيان والذى منه.

- ....

- أنا أقول لك.. بعد تخرجى أنتظر عشر سنوات بدون عمل، أنسى خلالها كل ما تعلمته وأتخطى سن الثلاثين، ويفوتنى اكتساب

أية خبرة فى العمل وأيضا فى الأعمال الحرة وأصبح مكبلاً بمرحلة الكهولة .. عاجزًا حتى عن الحركة.

وماذا ترى مستقبلك لو انقطعت عن الدراسة..؟

أنزل السوق وأتعلم .. أعمل مع التجار وأكسب خبره، ثم أعمل لحسابى..أية تجارة يا فهمى أفضل من ذل الوظيفة، وانتظار الراتب أول كل شهر .. ستعيش طوال عمرك فقيرًا. اسمع كلامى وتذكره جيداً.

انسحبت من المناقشة لما أحسست أنه أخذ قراره ولن يحيد عنه.. وذات يوم قالى بحسم: خلاص يا فهمى أخذت قرارى بعدم استكمال دراستى.

سألته مستنكرًا : نعم ..؟

قال : اهتديت إلى فكرة تعفينى من مواصلة المشوار..

ـ لا أفهم .

ـ سأدخل الامتحان ولن أجيب عن الأسئلة .

ـ أكيد أنت مجنون.

ركبت المترو.. جلست بجوار إحدى النوافذ محاولاً الهروب من أفكارى لكن هيهات..

صوت أمى يزعق محتدًا : تستدين من صاحبك..؟ لماذا ذهبت إلى المدرسة قبل أن تتناول إفطارك .. أو تشترى سندوتشات من

مــصــروفك .. إياك أن تكررها ثانيــة، ثم وهـى تضم رأسى إلى حضنها بعد أن تهدأ ثورتها: الدين ذل .. عار يا فهمى .. إياك أن تسأل أحدًا شيئًا ... أى شىء مهما كان تافهًا، حتى تعيش مرفوع الرأس دائمًا.

تتابع البنايات.. الشوارع .. الأشجار .. معالم لا أعرفها ، فهى غريبة عنى لم تعتدها عيناى، ثم ميدان واسع.

نبهنى جارى : هاهو ذا الميدان.

سألت عن العنوان : أشار بواب إلى بناية عالية.. الدور الثالث .. شقة ١٥.

جلس قبالتى وعيناه تجولان فى وجهى، وبسمته التى خبرتها طويلاً لم تغب عن ثغره .. يسألنى فى ود : إزيك يا فهمى - وإزاى مامتك .. عاملين إيه ..؟

(البهو واسع كأحد الميادين الصغيرة والثريات تتلألأ أضواؤها.

ونباتات الظل تملأ الفراغات).

سألته شقتك ..؟

قال : عمارتى.

(ما شا الله .. صالون أوبيسون رائع .. أحواض ورد وتحف ، وعلى الشمال «نيش» فخم وترابيزة سفرة لوكس وكراسى تحلى ظهورها نقوش الأويما، وعلى اليمين «أنتريه»» أرابيسك بالصدف.. ذوق راق).

سألنى ولم ينتظر جوابًا : تشرب إيه..؟

(ترى كيف حالها الآن..؟ تركتها على حالة الأمس إن لم تكن أسوأ.. صوت الطبيب ينخر أذنى .. «المهم الانتظام فى إعطائها الدواء». من أين لى ثمنه وقد أعطيتك كل ما معى..؟)

- أخبارك إيه يا فهمى .. علمت أنك تخرجت فى الجامعة .. لكن أين تعمل ..؟

- محاسب فى مو

- يعنى موظف ...؟

- وأنت ..؟

- لا ااا . صاحبك ، شرخ.

- نعم .. ش إيه ...؟

- هاها لا تؤاخذنى يا صاحبى.. إنها لغة العصر أقصد لغة السوق.. عمومًا أنا الآن أعمل فى المقاولات .. أدخل مناقصات البناء، والتى ترسو علىَّ أسندها إلى مقاولين من الباطن، وأعمل أيضاً فى سمسرة العقارات والأراضى، وعندى مكتب استيراد وتصدير. أستورد لعب أطفال وملابس جاهزة ومواد غذائية، وحالياً أقوم بتأسيس سلسلة مطاعم على غرار المطاعم الأمريكية.

- وبماذا تساهم فى الإنتاج الذى هو عصب الاقتصاد ..؟

ـ إيه يا أبو الأفـهـام .. دعك يا أخى من هذا الهـراء والكلام الكبير الذى لا طائل من ورائه.

ـ (لو كنت اشتريت لها الدواء من أمس ربما لتحسن حالها. لكن ماذا كان بيدى..؟ عمومًا صاحبك استقبلك بحرارة وأعتقد أنه لن يخذلك).

إيه يا فهمى .. ماذا بك.. حالتك مش عاجبانى .. تسرح كثيرًا على غير عادتك .. ماذا يشغلك..؟

(إنها فرصتك .. اشرح له ظروفك ، مرض والدتك ، ثم أدخل فى الموضوع ، كلها يومين أو ثلاثة ونردهم له، بمجرد أن تقبض راتبك).

لكن كيف .. كيف؟ لا لا .. لا).

ـ مالك يا فهمى .. لماذا تصرخ هكذا ..؟! هل أنت مريض..؟

قمت واقفًا ، مادًا له يدى: سلام عليكم.

لا .. مش ممكن أتركك وأنت فى هذه الحالة.

هرولت نحو الباب.

يا فهمى .. انتظر .. سأخرج معك..

فتحته وأنفلت هاربًا..

وصدى صوته يلاحقنى .. ياف .. هـ .. مى

احتراق

احـــتراق

الوجه مشرق كالبدر فى تمامه.. تتوج الشفتين ابتسامة حلوة، كشفت عن أسنان بيضاء صغيرة.. معقودة بجوار بعضها كعقد من لؤلؤ، لكن الكلمات المرصوصة تحت الصورة استدرجتنى للبكاء أسفاً على صباه.

بالأمس كان يجرى .. حتمًا كان يجرى .. يلعب .. يزعق .. يقفز.. يكركع ضاحكًا.. يلون الدنيا بفرشاة شقاوته الحلوة.

فى الصباح طرح شنطة كتبه وراء ظهره .. همس لنفسه ضاحكًا: «مثل الحمار يحمل أسفارًا».

قبل أن يصبح خارج الشقة، وتتدحرج خطواته الشقيه فوق الدرج قال لأمه : ياريتك تعملى لنا سمك النهارده يا أمى.

قالت : عينى يا حبيبى.

كور قبضته على قبلة وطوحها إليها وجرى

* * *

تعامدت الشمس مع الأرض فخافت أن يسرقها الوقت .. جرت إلى المطبخ.. رصت السمك فى صينية وهى تردد ضاحكة : دى ليك، ودى ليك، ودى ليه .. هه هه .. طبعا ، حتى فى الأكل ٢ : ١، ثم وضعتها فى الفرن، قبل أن تفرد طولها على الكنبة فى انتظار عودته: ، سمعت رنين الجرس.. عقدت بين حاجبيها دهشة والسؤال يترى فى رأسها: مين ياترى .. ممكن يكون هوه..؟ ونظرت إلى ساعة يدها.. لا .. لسه بدرى قوى.. أمال يبقى مين..؟

وفتحت الباب.. صاحت من خوفها لما رأتها أمامها: أبله حكمت..؟!! وجدتها فى حضنها تنهنه باكية وهى تردد اسمه.. أحست بالنار تأكل حشاها.. صرخت مولولة: حبيبى يا ضنايا.

وضربت على صدرها وهى تصرخ ملتاعة.

سمعن صراخها فجئنها مهرولات.. أخذنها إلى أحضانهن وهن يربتن على ظهرها.

- شدى حيلك .

- شفيعك يوم القيامة.

- الصبر يا ختى..

زكمت أنوفهن رائحة شياط، جرين إلى المطبخ.. كانت النار قد أكلت السمك.. حرقته .. صيرته رمادًا.

أغسطس ١٩٩٢

مساحة من الزمن الجميل

مساحة من الزمن الجميل

يااااه.. كل هذه النقود...!!!! كيف سأحصيها..؟ لقد كنت أقع فى «حيص بيص» يوم كنت أقبض راتبى... لقد كانت بضعة جنيهات، كنت أعدها. ثم أطويها وأدسها فى جيبى، ثم لا ألبث أن أخرجها لأعدها ثانية، وأظل هكذا حتى أصل إلى البيت وأعطيهم لها.. زوجتى الطيبة.. الله يرحمها ، ماتت ورحل معها الزمن الجميل.

أفرد الورقة أمام عينى، غير مصدق وأنا أقرأ الرقم، فادعك عينى، ثم أظل أرنو للورقة، وتظل عيناى منفجلتين، والرقم يظل يكبر ويتجسد.. مائة ألف جنيه يا خبر أبيض.. معقول..؟! كيف سأحتفظ بهذا المبلغ فى البيت.. يا قوة الله يا ولااد.. وإذا فرض فأين أخبئه..؟

أتلفت حولى... تجوس عيناى بين الكراسى العرجاء والدولاب مخلوع الضلفتين، والمنضدة القديمة التى ورثتها عن جدى وسرير معدنى، ورف خشبى ينوء بحمل مذياع قديم متهالك، يملأ الحجرة

زعيقاً وخشخشة . أيوه .. فكرة هائلة .. أخبئه تحت هذا المذياع.. ولكن ربما يعلم لص بحيازتى لمثل هذا المبلغ فيجىء ليلاً ليسرقه، وحين لا يجده يقتلنى غيظًا.. يا خبر مش فايت.. الأفضل أن أودعه أحد البنوك .. نعم .. هذا هو الحل الأمثل .. بمجرد أن أستلمه أودعه البنك .. لكن يجب أن أجنب منه بضعة آلاف لأشترى بعض الضروريات. سرير خشبى ومرتبة جديدة طرية ومخدة ناعمة وبطانيتين أحتمى بهما من لسعات البرد القارس، وقميصين ثلاثة، وبنطلونين ثلاثة، وحذاء وشوية شرابات... يااه.. منذ متى وأنا أرتدى هذه الملابس..؟! عشرة طويلة، تحسب بالسنوات، كذلك أحتاج لكثير من أدوات المطبخ والطعام.. حلتين ثلاثة .. شوية أطباق... شوية معالق .. كام كوب..

تظل عيناى تجوبان فيما حولى.. يااه.. كأنى لم أر طلاء الجدران المتساقط إلا توا، ورشح الماء فى جزئها الأسفل ولمبة الكهرباء المتدلية من السقف كرأس مشنوق متيبس. فآثر الاختباء تحت الغبار.

تحسست بطنى الضامرة.. قلت لنفسى هامسًا: منذ متى لم تذق الزفر..؟ لا ضير أن أنفق بضعة جنيهات أو أكثر ثمنًا لوجبة دسمة.. أذهب إلى الحسين لآكل عند الدهان، أو كوارعى العهد الجديد.

يااه.. ترى كم ثمن الوجبة عندهما الآن... كنت أدفع خمسة عشر قرشًا يوم كانت تأتينى النقود من البلد أيام الدراسة.

إييه.. أيام ذهبت لحالها.. لم يعد المكان لأمثالنا.. الأماكن كلها صارت سياحية.. المقاهى والمطاعم .. حتى الطرقات صار يشغلها عسكر السياحة .. كل شىء تغير حتى شارع الأزهر صار كئيبًا مزدحمًا، يعلوه كوبرى كئيب .. ليس مهماً الذهاب إلى هناك... كل المحال تحولت الآن إلى مطاعم.. صحيح أن معظمها أمريكية، والفراخ بيضاء لا طعم لها، لكن ما باليد حيلة أمام اشتهائى لأكلة دسمة أرم بها عظمى.. تمامًا كما أشتهى لنومة هادئة مرتبة طرية ووسادة ناعمة، لا يقلقنى عليها وسواس بالموت جوعًا، أو شبح الطرد من الحجرة الذى صار أقرب إلىَّ من حبل الوريد بعد أن انكسرت الأجرة لبضعة أشهر.

اااه.. إذا حدث هذا الأمر فإلى أين..؟ إلى الشارع أو حديقة منزوية فى البعيد، أقضى فيها ما تبقى لى من عمر ، مختبئًا من أعين العسس.. أين بطاقتى..؟

هاهى... الحمد لله.. سينقذنى وجودها معى من لف أقسام الشرطة فى مصر المحروسة كعب داير .. لقد صارت متهرئة .. لا ضير .. فإن بياناتها واضحة.. الاسم، تاريخ الميلاد.. الوظيفة معاون خدمة .. هأ هأ.. يعنى رئيس فراشين.. آه.. نسيت أو كدت أنسى، يجب أيضًا أن أجنب مبلغًا لصديقى وزميلى من أيام الصبا.. سيد حنفى، الذى واصل دراسته حتى حصل على دبلوم التجارة.. مسكين .. تمكن المرض من قلبه.. أنشب فيه أظفاره ، رقد فى المستشفى على رجاء الشفاء، طالت رقدته فأحيل إلى التقاعد قبل أن يبلغ الخمسين، كان ممتلئًا شبابًا وحيوية.. متورد الوجه كزهرة

ندية .. نضرة .. تشرئب متباهية بصحتها وجمالها .. سرعة بديهة وذكاء نادران يتمتع بهما .. قفشات لاذعة وتعليقات ساخرة تنبئ عن خفة ظل أصيلة .. يضفى على المكان الذى يتواجد فيه البهجة والسرور.. مسكين .. أين هو الآن..؟

يومها سقط القلم من يده، ووقع رأسه على صدره ، وراح يتأوه فى وهن وضعف، ثم غاب بعيدًا ... جرينا إليه ، بللنا وجهه وشفتيه ، وجلبنا له الهواء، وزعقنا نسأله مشفقين: إيه يا أستاذ سيد.. مالك..؟ ماذا حدث..؟

واعترانا الخوف عليه، فرحنا نتخبط لا ندرى ماذا نفعل .. حتى جاء الفرج حين أطلق أحدنا صرخة ملتاعة مغموسة بالخوف : أطلبوا له الإسعاف.

جاءت العربة، ونقلته إلى المستشفى.

- استثمارية ...؟

- هى المنتشرة الآن ... وحتى الحكومية بمصاريف.

- آه .. لم يعد شىء بالمجان.

- الحمد لله أن إمكاناته تسمح وإلا كان ضاع.

- المهم ألا تطول إقامته فى المستشفى.

وانتظرنا عودته، لكنه لم يجئ، فقد أعطب المرض قلبه.. هاجمه بشراسة، وصيره هيكلاً، ونفد ماله فاضطر للرقاد فى البيت، مكتفيًا ببلبعة الأقراص.. مسكين.. من يراه الآن لن يعرفه وهن

عظمه واشتعل رأسه شيبًا ، وتغضنت بشرته فصار شيخًا يحمل السنين الطويلة التى لم يعشها فوق كاهله.

لأذهب إليه.. أكيد أنه سيحتاج لمساعدة، ولو بضعة آلاف، علها تخفف عنه بعض آلامه.

آآه.. وبضعة آلاف أخرى لبناء ملجأ، ومعهد لتعليم الصغار حرفًا تقيم أجورها شر الحاجة، ومستشفى لمرضى الأمراض العقلية بدلاً من ذلك الذى هدموه وطردوا نزلاءه ليهيموا فى الطرقات على وجوههم يروعون خلق الله، ودارًا للمسنين، ومستشفى لعلاج الفقراء مجانًا، وبعض آلاف أخرى لشراء أغطية للبالوعات الفاغرة أفواهها لابتلاع أبنائنا وأخوتنا فتصيب قلوب ذويهم بالوجع مرتين .. مرة لفقدهم المفاجئ، ومرة لما تعرف قدرهم عند المسئولين، إذ يطل السؤال من أعينهم عند استلامهم التعويض المادى.

اللآاااه.. ما أجمل أن تحلم وأنت مسترخ فوق سريرك حتى لو كان قديمًا ويزيق من تحتك، أغمض عينى لأعيش سعادة مسبقة على الفعل فيتضاعف إحساسى بها، أمد ذراعى لألتقط علبة سجائرى .. أشعل واحدة أظل أرنو إلى اللهب منتشيًا .. يطل على وجه كليوباترا الجميل ببسمتها الرائقة العذبة..

حلوة الحياة عندما تخلو من الهموم، وعذابات الناس وآلامهم وأحزانهم وقهرهم.

غدا أو بعد غد أو ... بعد أن أنتهى من كل ما أنتويته أرجع إلى

البيت لآخذ حمامًا دافئًا، وأرتدى ملابسى الجديدة، قميص نصف كم ، وبنطلون جينز وحذائى الجديد، ثم أنفلت خارجًا فى منتصف الليل بعد أن يهجع الناس... ما أجمل القاهرة فى هدأة الليل، حيث السكون والنسمات الطرية تداعب الوجوه وتمسح عنها عناء القيظ وزمتة الرطوبة البشعة.. أظل أسير وأسير حتى أجدنى بحذاء النهر.. أملأ عينى من منظر الماء الراقد ساكنًا فوق سرير النهر الممتد إلى ما لا نهاية، تغار الريح من رقدة الماء فتنفخ نفخة هينة، فيفزع موجه ويدخل فى سباق هادئ جميل.. باعة الترمس متراصون فى صف لا عوج فيه، ترتفع قراطيس الورق من جوانب عرباتهم كمآذن قصيرة، والقلل تغطيها عساكر نحاسية لامعة.. أميل نحو أحدهم .. أروى ظمئى من ماء القلل الزلال، وأشترى قرطاسًا يملؤه البائع بالترمس والحمص، أسير نحو النهر.. أفترش الأرض عند حافته .. أخلع حذائى وأغمس قدمى فى مائه الذى حرمت منه منذ تركت قريتى صغيراً.

غدًا أو بعد غد أو .. أفعل ما أصبو إليه .. لكن متى يجىء هذا الغد؟

آآآى.. أتثاءب . يهاجمنى النعاس.. أدس يدى فى جيبى .. تقبض أصابعى على الورقة فيه، أبسطها أمام عينى.. مائة ألف جنيه .. يا نصيب جمعية الـ .. أفرك عينى بأناملى وأعيد القراءة الجائزة الأولى.. أطويها بعناية.. أدسها ثانية فى جيبى.. أتحسسها.. أطمئن لرقادها فى أعماقه .. أتقلب على جنبى الآخر مغمضًا عينى..

صدر للمؤلف

العنوان	النوع	السنة	الناشر
ـ الهاموش	مجموعة قصصية	١٩٨٥	على نفقته الخاصة (نفدت)
	طبعة ثانية	٢٠٠٣	مطبوعات النادى النوبى الثقافى
ـ أنا الموقع أدناه	م. قصصية	١٩٨٧	المجلس الأعلى للفنون والآداب (نفدت)
ـ بين النهر والجبل	رواية	١٩٩١	الهيئة العامة للكتاب
ـ خور رحمة	مجموعة قصصية	١٩٩٣	أصوات أدبية ـ الهيئة العامة لقصور الثقافة
	طبعة ثانية	٢٠٠١	مطبوعات النادى النوبى الثقافى
ـ عينان زرقاوان	مجموعة قصصية	١٩٩٦	الهيئة العامة للكتاب
ـ دوامات الشمال	رواية	١٩٩٨	الهيئة العامة للكتاب (نفدت)
ـ بحر الزين	ثلاث روايات قصيرة	٢٠٠٣	الكتاب الذهبى ـ نادى القصة

تحت الطبع :

العنوان	النوع	الناشر
ـ بيننا الوطن	مجموعة قصصية	الهيئة العامة للكتاب
ـ مدارات الجنوب	رواية	الهيئة العامة للكتاب

المحتوى

• صدر من هذه السلسلة

١ . ومازال الدم يبوح	شـعــر	محمد فهمي سند
٢ . تيك أواي	قصص	حجاج حسن أدول
٣ . الحرب الثالثة	روايــة	عبدالمنعم السلاب
٤ . أمواج في بحر الحروف	شـعــر	فوزي خضر
٥ . بكائية للوطن والغربة	قصص	رأفت سليم
٦ . فنون الواو	دراسـة	عبد الستار سليم
٧ . الزجاج المكسور	قصص	غبريال وهبة
٨ . شقة الهوى والهوان	روايــة	إيهاب سلام
٩ . إسكندرية المهاجر	شـعــر	أحمد فضل شبلول
١٠ . تغريبة الخواص	روايــة	عبدالحميد الفداوي
١١ . ظل باب	قصص	أحمد محمد حميدة
١٢ . الخيول الشاردة	روايــة	بهي الدين عوض

١٣ . طوفان النار	قــصص	محمد حافظ صالح
١٤ . أيام زمان.. أين أنت	قــصص	هشام قاسم
١٥ . على المواجع	شــعـر	علي السويدي
١٦ . حبيبتي والخيل والضفيرة	شــعـر	محمد صلاح الدين السعيد
١٧ . لو أنك ياحب تجيء	شــعـر	ناجي عبداللطيف
١٨ . انشطار التاج	مسرحية شعرية	محمد أحمد حمد
١٩ . احضنوا الشمس	مسرحيات	محمد كمال محمد
٢٠ . الفلاح الفصيح	مسرحيات	محمد نصر يس
٢١ . الأمل الخالد	مسرحية	شوقي سعد لبيب
٢٢ . الأراجوز والقراقوش	مسرحية	السيد حافظ
٢٣ . مختارات	شــعـر	جليلة رضا
٢٤ . قطار الساعة ١٢	قــصص	السيد الشوربجي
٢٥ . وداع لم يتم	قــصص	محمد صفوت
٢٦ . تل المعافرة	قــصص	محمد شاكر الملط
٢٧ . عبور الميدان ظهراً	روايــة	محمد سليمان
٢٨ . كف مريم	قــصص	سعيد سالم
٢٩ . الأمل وأحلام النورس	شــعـر	يس الفيل

٣٠. لسه الأغاني ممكنة	شـعـر	كوثر مصطفى
٣١. عثرات الفرس الأهوج	شـعـر	عادل عزت
٣٢. حصان الليل	روايـة	علي عيد
٣٣. أعناق الورد	قـصص	عزة بدر
٣٤. جهاز ط.ح.أ	قـصص	كوثر عبدالدايم
٣٥. عائلة صابر عبدالصبور	روايـة	محمد القصبي
٣٦. أغلى حب	شـعـر	فاطمة الحفني
٣٧. سراية أفندينا	مسرحية	سعيد عرفة
٣٨. أغنيات من زمن الخوف	شـعـر	إبراهيم صالح
٣٩. التوأم الشريد	روايـة	عبدالله الجنايني
٤٠. انتفاضة شعب	شـعـر	مجموعة شعراء
٤١. الرعية	شـعـر	صلاح والي
٤٢. وردة في عروة القدس	شـعـر	جميل عبدالرحمن
٤٣. جبل الأولياء	روايـة	محمد محمود عبدالرازق
٤٤. المسرح الشعرى بين شوقى وأباظة	دراسـة	كمال نشأت
٤٥. انتصاف ليل مدينة	قـصص	سمير الفيل
٤٦. كاس ودموع	شـعـر	نجوى السيد

العنوان	النوع	المؤلف
٤٧ . البحث عن لميس	قصص	محمود حنفي كساب
٤٨ . عازف الأرغن	شعر	عبدالشافي داود
٤٩ . غناء الأشياء	شعر	حسين علي محمد
٥٠ . صلاح الشرنوبى (حياته وشعره)	دراسة	مصطفى عبدالشافي
٥٢ . يسقط يعيش	مسرح	أحمد حسن شبرية
٥٢ . الوشم بالكلمات	مسرح	أمين بكير
٥٣ . أصل وعفريت	قصص	رجب حسن
٥٤ . المحبون	رواية	جمعة محمد جمعة
٥٥ . رؤى نقدية	نقد	هدى العجيمي
٥٦ . حجاكم الله	رواية	محمد الناصر
٥٧ . غناء الهجر	شعر	عزت الطيري
٥٨ . دماء الأميرة	رواية	عماد الدين عيسى
٥٩ . أحزان بلدنا	رواية	مكرم فهيم
٦٠ . حبات كاليزما	قصص	سناء محمد فرج
٦١ . عيار طائش	شعر	عصام الزهيرى
٦٢ . وجوه	رواية	مصطفى نصر

٦٣. النسمة العائدة	شـعـــر	محمد حسن داود
٦٤. ظلال في الظهيرة	قـصص	مصطفى الأسمر
٦٥. كنوز شمائل	قـصص	عصام الصاوي
٦٦. الفلنكات	قـصص	محمد عبدالحافظ
٦٧. في هواها كان عمري	شـعـــر	محمد علي عبدالعال
٦٨. جوع القلب	روايـــة	محمد الجمل
٦٩. قراءة في اتجاهات الرواية الحديثة	دراســة	محمد أحمد شومان
٧٠. تحت السور	قـصص	سعيد بكر
٧١. انعطاف النهر	قـصص	عبدالفتاح مرسي
٧٢. شبابيك مقفولة	شـعـــر	ليلى محمد علي
٧٣. الهجرة إلى الأعماق	روايـــة	سعاد شلش
٧٤. عصا أبنوس ذات مقبض ذهب	روايـــة	محمد عبدالله الهادي
٧٥. عيون على الخطـ	روايـــة	فوزي وهبة
٧٦. إشراقات الحب والغضب	قـصص	محمد جابر غريب
٧٧. الحنان السري	قـصص	خالد السروجى

٧٨. إلا..	شـــعـــر	فاروق خلف
٧٩. عزف.. لا يطرب النساء	شـــعـــر	سامية عبدالسلام
٨٠. القارعات	قــصـص	سعد القليعي
٨١. خلاخيل العابرة	شـــعـــر	السماح عبدالله
٨٢. إنترنت	شـــعـــر	سعدني السلاموني
٨٣. نمل الرَّصيف	شـــعـــر	محمد صابر مرسي
٨٤. عنبر ٨	روايـــــة	محمد الشريف
٨٥. قال	روايـــــة	فوزية حسن
٨٦. الشعر وأنا	شـــعـــر	شريفة فتحي
٨٧. مصر للمصريين في ثورة العربيين	مسرحية	أحمد إبراهيم أحمد
٨٨. كونشيرتو منتصف الليل	شـــعـــر	حسن النجار
٨٩. على سلَّم من هشيم الرياح	شـــعـــر	حسن فتح الباب
٩٠. النورس لا يعشق البحر	روايـــــة	فؤاد نصر الدين
٩١. رمل.. وماء.. والمدى..	شـــعـــر	عبدالرحمن درويش
٩٢. شجر الصراحة	شعر عامية	إبراهيم خطاب
٩٣. قوس الرَّياحين	شـــعـــر	مصطفي العايدي
٩٤. احتواني الانتظار	شعر عامية	إيمان أحمد يوسف

العنوان	النوع	المؤلف
٩٥. الملاك الصغير فوق السحاب	روايــــــة	محمدد عبدالمنعم رضوان
٩٦. عدالة في التوزيع	مسرحية	درويش الزفتاوى
٩٧. ضوء بعيد في العتمة	روايــــــة	ربيع الصبروت
٩٨. زمن الإنكسار	شـــعــــر	فرغلى الخبيري
٩٩. الظلال	مــســـرح	محيى عبد الحى
١٠٠. نتوءات على وجه القمر	قصص قصيرة	عبدالرحمن الشريف
١٠١. عرس البغاء	قصص قصيرة	الحماقى المنشاوى
١٠٢. ١١ سبتمبر هوليود العرب	دراسة نقدية	أشرف شيتوي
١٠٣. دوائر الغبار	قصص قصيرة	حسن نور
١٠٤. اغتيال استاذة	روايــــــة	أميمة جادو
١٠٥. سوزان	روايــــــة	سمير درويش
١٠٦. زمن نجوي وهدان	روايــــــة	مجدي جعفر
١٠٧. وشم الغيم	روايــــــة	محمد الفارس
١٠٨. قاف	روايــــــة	علي المنجي
١٠٩. سور الجامعة	شعر عامية	خالد محمود
١١٠. نسيان وكدب وصدق	شعر عامية	ناجي شعيب
١١١. بدر بالسماء تم	شـــعــــر	أحمد التمساح

١١٢ . زهرة الشوك قصص قصيرة عادل سركيس
١١٣ . غربة و٨ شجرات قصص قصيرة فاطمة السيد
١١٤ . دراسات في ثقافة الطفل دراســـــات
١١٥ . الجعران مـــســــرح إيهاب فاروق حسني
١١٦ . لحظات قصص قصيرة وائل وجدي
١١٧ . وجع دافئ نـثــــــر هالة فهمي
١١٨ . غناوي الدراويش شــعـــــر سلامة عيسي

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب
ص. ب : ٢٣٥ الرقم البريدى : ١١٧٩٤ رمسيس
WWW. egyptianbook. org
E - mail : info @egyptianbook.org